غائم كليًا

غائم كُليًّا

مجموعة قصصية

عمرو مجدي البيومي

غائم كُليًّا

اسم الكاتب: عمرو مجدي البيومي
تدقيق لغوي: محمود سلام أبو مالك
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 23740
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 47 – 7

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

إلى روح أبي رحمه الله

عللكَّ تكون راضيًا عني .. وحتى ألقاك

- هل يرضيه الظلم يا جدتي؟
- لا يا بني.
- لم يسكت عنه؟
- من يدري يا بني. ربما لسخطه على تهاون النَّاس مع الظالم.

نجيب محفوظ، الحرافيش

******

لكن النَّاس تحملوا البغي في جلد. وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا "لا بدّ للظلم من آخروالليل من نهار"

نجيب محفوظ، أولاد حارتنا

"النُّور لا يَهدي العُميان"

دخول مفاجئ

كان متوسط القامة، رث الثياب، تنطق ملامحه بوداعة وبجمال كان على قسماته يومًا ما لولا عدم اهتمامه بالعناية الشخصية بنفسه، كان يقف بالجزيرة الوُسطى بميدان التحرير عصر هذا اليوم ممُسكًا بزجاجة خمر رخيص محلي الصُنع يترنح من السُّكر عندما صاح بأعلى ما تسمح به حنجرته:

- أنا جدع يا عبيد فرعون!

وانطلق الرجل بعد ذلك في خطبة مزلزلة عنيفة خرقت سكون الميدان، طالت السياسيين والمسؤولين بما فيهم رأس هرم السُّلطة في مصر، ولعن الرَّجل بخطبته جمهوريَّة الخوف وحواجز الرهبة بالقلوب وتحسر على أهداف الثورة الضائعة التي خرجت من الميدان الَّذي كان فصار!

وإن كانت خطبته تتمتع بقدر واسع من فصاحة اللسان وروعة البيان فإنَّها لم تخلُ من البذاءات والسباب الواضح لمسامع العيان والمقذعات من الكلمات.

دقائق بدا أن الرجل يوجّه الخطبة إلى نفسه لعدم وجود مستمعين من حوله، لكن بمرور الوقت وبسبب خطبته العصماء وصوته القوي الجهوري الَّذي بإمكانه إيذاء الميت في قبره تكأكأ النَّاس

حوله فيما يُشبه الحلقة وبدؤوا في الإنصات له في اهتمام وأبصارهم شاخصة نحوه يتساءلون داخل نفوسهم التي تقاطرت بها الحيرة تباعًا عن شخص هذا النحرير الجسور الذي واتته الجرأة والشجاعة القُحة لإلقاء تلك الخطبة النَّارية الرنَّانة وسط تكاثف أمني بالميدان الأشهر والمئات من الأعين والآذان التي تُراقب وتتنصَّت لحركة النمل ودبيبه.

وانتهى الرَّجل من خطبته الهادرة بدعوته للوحدة والإدراك بالتزامن مع تجرَّعه لثمالة زجاجته في جوفه ليخترق جمهوره من النَّظَّارة عابرًا الشارع الَّذي شُل مروريًّا، مترنحًا متجهًا إلى ناحية باب اللوق ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار التي كانت تشيعه بمعالم وجوه انطبعت عليها الدهشة والحيرة.

وشاع في المساء ببعض مقاهي وسط البلدة ما حدث في عصر اليوم من السكير فاشتعلت واحتدمت المناقشات وتناقلت الألسُن الخطبة بحذافيرها وتندَّروا وأشادوا بقوتها في آنٍ واحد في مجالسهم بالتوازي مع إشادتهم بجرأة السكير واستهانته بما قد يحيق به من خطر أجهزة الأمن التي بمقدورها طحن عظامه في ثانية وتسويته بالأرض أو إخفاؤه عن وجه القطر كله.

وفي مقهى "بغداد" كانت الآراء والتعليقات تترامى هنا وهناك، فقال الأستاذ عزمي المحرر الأدبي بصحيفة الخبر مازحًا: "اختفاء قسري إن شاء الله!" وقال سليم صبي المقهى ضاحكًا: "لا ريب أنَّه الآن ينفخ أو

يضرب أو يكهرب في قضيبه من إخواننا البُعدا!" وقال أبو دُوسة ماسح الأحذية مضيفًا إلى تعليق سليم: "الفاتحة له" بينما قال الأستاذ منسي: "كدنا أن ننسى التجمعات التي تناقش أحوال البلاد حتى أتانا هذا الرجل"، وفي السياق ذاته قال عجوز هرم يسرح بعربة بطاطا كان يسترق السمع لترامي التعليقات وهو يجلس على مقعد بالمقهى يحتسى كوبًا من الشاي: "يا له من رجل! كلماته تحرّك الصخر فعسى الصخر أن يتحرّك!"، وقال آخر لم يتبين أحد من رواد المقهى ملامحه لجلوسه في ركن منزوٍ مظلم بالمقهى: "سكير يهذي بهذر هذا كُلُّ ما في الأمر! المهم أنَّنا أحسن من سوريا والعراق و... ولم يكمل الرجل حديثه إذ اخترقت أذنه سبة بذيئة احتجاجية فيما يبدو على ما قاله ولم يعرف من زاويته المظلمة من أيّ فيه انطلقت، وفي معرض تعليقه على خطبة اليوم قال رجل سبعيني: "خطبة هذا الرَّجل فتنة! وحذار من الوقوع بها!" ولم يلقَ تعليقه صدًى طيبًا في نفس الأستاذ منسي فانقلبت سحنته من الرضا للكدر وشخر له محتجًّا، أمَّا الأستاذ فخري أباظة فقد قال: "شيئان يدفعان الرَّجل إلى قول الأعاجيب الخمر والحشيش!".

وكان الجميع في انتظار البرعي معلم المقهى لسماع زُبدة آرائه عما حدث في عصر هذا اليوم الملتهب عندما ألقى أحدهم إليه سؤالًا حول السكير وخطبته، فهز البرعي كتفيه استهانة ومَصمص شفتيه وقال في

بطء وقد تشبع مخه بالحشيش الأصلي: "عن أي سياسة تتحدثون؟ نحن في مقبرة؟!".

على أنَّ المقاهي ولا سيما بغداد لم تعرف الراحة والسكينة في الأُمسيات تحديدًا منذ خطبة السكير، وباتت الخطبة حديث الأحاديث أيَّامًا، وتطورت بعض المناقشات لتخرج عن إطار الانضباط والرزانة إلى الشجار أحيانًا والمشادات الكلامية والتراشق اللفظي بفواحش الكَلم أحيانًا أخرى لاختلاف وجهات النظر، ومع مرور الأيَّام توقَّف زلزال الخطبة وتوابعه تمامًا وطغت أحداث أخرى على الساحة شغلت عقول رواد "بغداد" كمعاش الحياة اليومي والغلاء الَّذي اكتوى به الجميع والجنون المُسيطر على العالم، لكن بقي سؤالان يترددان في عقول القليلين بلا إجابة شافية: أيّ وحدة؟ أيّ إدراك؟

شقة بالطابق التاسع والعشرين

حقق حلمه أخيرًا بامتلاكه تلك الشقة السكنية بالطابق التاسع والعشرين والأخير بتلك البناية السامقة ذات الهيبة والوقار والفخامة والأُبَّهة، المُطِلة على نيل القاهرة بجوار مبنى ماسبيرو الشهير.

دفع "تحويشة" عمره مقابل شرائه للشقة، لكنَّه لم يلقِ بالًا إلى هذا. كان كُل ما يتمناه أن يخامره هذا الإحساس بأنَّهُ الأعلى والأكثر قوة من خلال موقعه بالطابق الأخير! أن يتراءى له كل شيء من الأعلى صغيرًا تافهًا حقيرًا.

فتح المستشار الغندور "بلكونة" الشقة الرئيسة، طالت وجهه شمس الصباح الدافئة، داعبته نسائم الصباح المُنعشة، ألقى ببصره إلى الأسفل على الشوارع والناس والنيل، خامره إحساس القوَّة مجددًا، بات النَّاس -بالنسبة إليه- كالنمل، والنيل كمصرف زراعي، والسيارات كصفائح قمامة، هو ها هُنا بالأعلى وهم بأسفل سافلين، وكُل شيء في نظريته تلك صغيرًا تافهًا.

ترك "البلكونة" مفتوحة على مصراعيها لتجديد هواء الشقة، ثم ذهب لغرفة نومه فارتدى بدلة للذهاب إلى عمله ثم ذهب إلى المطبخ ليُعد قهوة الصباح، لم ينتهِ من إعدادها إلا بعد خمس دقائق، كان

يعدها على "السبرتاية" في أناةٍ وهدوء، فالقهوة عنده مزاج إعدادًا واحتساءً.

رشف رشفة من فنجانه، وفتح "بلكونة" المطبخ المُطلة على مثلث ماسبيرو الشهير بأبنيته العشوائية المتواضعة وأسطُحها التي تغص بالعشش والنفايات والمخلَّفات، تقلَّص وجهه غضبًا ولفحته نيران الغيظ وتمنى في قرارة نفسه أن تخسف الأرض بتلك الأبنية بقاطنيها! لن يكتمل جمال المشهد ولن تتّضح له كمال السعادة إلا بزوال تلك الحقارة الصغيرة الوضيعة من هنا.

وحدث أن دهمته فجأة فكرة على سبيل الهذر لم يستطِع كبح جماح نفسه عن تنفيذها على خطورتها وجنونها في آنٍ واحد.

وضع قدح القهوة جانبًا، ورفع قدمه اليُمنى ووضعها على سور "البلكونة" الأسمنتي واستَند بيده إلى عمود "البلكونة" الجبس قبل أن يرفع قدمه اليسرى ليضعها هي الأخرى على السور الأسمنتي ولم يلبث ثوانيَ حتى كان يقف على قدميه باعتدال على السور الأسمنتي!

ثم مدَّ قدمه اليُسرى إلى خارج سور "البلكونة" تمامًا، تهلل وجهه بمعالم الرضا وهو يوجه نعل حذائه لقاطني المثلث. اجتاحت نفسه مشاعر القوَّة واستولى عليه الاستعلاء وكأنَّه بهذا العمل يتعمد إذلالهم والتحقير من شأنهم.

لكن حدث أن اختل توازنه فجأة، تراخت يده التي تمسك بعمود الجبس دون مُقدِّمات، فارتفعت رجفات قلبه وجحظت عيناه وطفح أديم وجهه بالرعبِ. طفق يُصارع الهواء في محاولة خائبة يائسة للتشبث بأيِّ شيء وهمي، لكن الغندور هوى من "بلكونة" المطبخ وهو يطلق صرخة مُدوّية تردد صداها القوي في المنطقة بأسرها.

وارتطم جسد الغندور بسطح منزل متواضع كان سطحه فيما يبدو مِخزنًا للحديد "الخردة"، أحدث الارتطام دويًّا هائلًا إذا وضعنا في الاعتبار البناية شاهقة الارتفاع التي سقط منها المستشار الغندور وكذا بدانته النسبية، ولم تمضِ دقائق حتى طوَّق جسدَ الغندور الغارق في دمائه قاطنو المنزل الَّذي سقط عليه وآخرون ممن هرعوا إلى السطح على وقع صوت الارتطام القوي، لم يكترت الجمع الَّذي طوَّق الغندور بإسعافه، كان واضحًا من خلال الجثة المهشمة الرأس أنَّ الرجل قد لقى وجه ربه الكريم، لم يهتم أيٌّ منهم بمعرفة أسباب سقوطه من البناية السامقة بقدر ما اهتموا بتفتيش جيوبه وخلع ساعة يده الثمينة عن مِعصمه!

إشارة إلهية

انتفض جسد حنورة وهبَّ من نومه فزعًا يرتجف وأخذ يمسح براحة يده عدة حبات من العرق تفصدت على جبينه ورقبته الضخمة كجزع شجرة، ثمَّ أزاح الغطاء الثقيل عن نصفه السُّفلي وأخذ يتمتم بآيات من الذكر الحكيم وقد خفق قلبه واضطرب في قوّة وتقلّص وجهه من الذعرِ، واستيقظت زوجه بدورها على وقع انتفاضته القوَّية، فأضاءت "الأباجورة" التي بجانبها فأنارت الغرفة بإضاءة خافتة قابضة للنفس زادت من توحش الغرفة وكآبتها في تلك الليلة الساكنة كالقبر ثمَّ ناولت حنورة "قلة" فأخذها منها في سرعة وصبَّ مياهها في حلقه فارتفع صوت قرقرة المياه في فمه وهي تنهمر داخله كالشلال، ثمَّ وضع "القلة" جانبًا ومسح طرف شاربه بكمه قبل أن تقول زوجته في قلق انطبعت آياته على وجهها:

- الحلم نفسه؟

زفر حنورة في حرارة وشت بما يعتمل في صدره ليقول:

- كابوس، خليق بكِ تسميته "الكابوس".

ثمَّ ساد صمت مفعم بأحاسيس شتى خامرتهما قبلما يستطرد:

- أترجَّل في طريق المقابر في ليلة ممطرة باردة كئيبة، القبور والشواهد مبعثرة هنا وهناك، تتعثر قدمي في شيء ما فيختل

توازني فأقع على الأرض المُوحلة كالجوال وقبل أن أحاول النهوض تسحبني يدٌ عظمية من ساقي إلى داخل أحد القبور وهذا الصوت العميق يردد بلا انقطاع: "الظلم ظلمات، الظلم ظلمات" فأصرخ من الهول طالبًا النجدة محاولًا المقاومة دون جدوى واليد العظمية تسحبني رويدًا رويدًا إلى داخل القبر لأغوص فيه أكثر فأكثر.

قالت له زوجته في اهتمام:

- قلت لي إنّك ستتحدث مع الشيخ هداية عن هذا الكابوس وتفسيره.

قال حنورة في لا مبالاة:

- قال لي: "لا تقلق، خير إن شاء الله" ثُمَّ نصحني بصلاة العشاء في جماعة وقراءة الصمدية والمعوذتين قُبيل النوم.
- وهل فعلت ما نصحك به؟
- بحذافيره.

وعاد ليسكت للحظات قبل أن يستطرد:

- لكن.. رغم ذلك فالكابوس يتكرر يوميًّا ويأبى أن يفارقني.

ثمَّ كور قبضة يده قائلًا في مرارة:

- ما كان لي أن أشنقها، كان لزامًا عليَّ تصديق الإشارة الإلهيَّة كما قالت.

وتراجع حنورة إلى الوراء قليلًا مستندًا بمرفقه إلى وسادة وأسبل جفنيه يتذكر كل شيء.

الفتاة العشرينية الَّتي صدر حكم الإعدام بحقها وعندما حانت لحظة الإعدام وقام بإرجاع عصا الطبلية إلى الخلف حدث ما لم يكن في الحسبان نهائيًّا.

انقطع حبل المشنقة من الأعلى فسقطت الفتاة في قاع طبلية الإعدام وسط ذهوله وذهول كل من حضر التنفيذ بمن فيهم سيادة مأمور السجن شخصيًّا والواعظ الديني.

وتذكر حنورة أنَّه رُغم سنوات عمله الطويلة في الخدمة بسجن القناطر بوظيفة "عشماوي" التي قاربت الثلاثين ومع العشرات ممن قام بإعدامهم تنفيذًا للأحكام الصادرة بحقهم لم تحدث أمامه قط حالة مشابهة لذلك الحادث العجيب الَّذي وقع أمام ناظريه الخاص بتلك الفتاة الَّتي اعتبرت ما حدث إشارة إلهيَّة للتراجع عن إعدامها لأنَّها كما قالت بريئة ولم تقترف جريمة القتل التي ألصقت بها.

واهتز حنورة حينذاك من أعماقه ممَّا حدث وضربه الارتباك وطوقته الحيرة وتبلبل عقله. بدا كطفل صغير يقف متسمرًا في مفترق طرق لا يعرف أي سبيل يسلكه. لم يدرِ ماذا يفعل ومأمور السجن يأمره بسرعة إصلاح المشنقة ومعاودة تنفيذ حكم الإعدام مجددًا! صحيح أنَّهُ داخل نفسه صاح فيه صوت غاضب يأمره بعدم إطاعة مأمور السجن

لكنَّه في النهاية رضخ للأمر وأعدمت الفتاة بعد إصلاح المشنقة مباشرة، وتمَّ التنفيذ بنجاح.

لكنَّه لم ينسَ أبدًا نظرتها التي تقدح بالشر الَّتي ألقتها إليه وإلى المأمور قُبيل تغطية وجهها بالجورب الأسود وكانت تردد بلا انقطاع: "الظلم ظلمات، الظلم ظلمات" و...

انتزعته زوجته من اجتراره لذكرياته الأليمة إجباريًّا عندما قالت له:

- ليس الذنب ذنبك. في النَّهاية هناك قاضٍ حكم بالقضية وهناك مأمور أمرك بالتنفيذ، فالمسؤولية تقع على عاتقيهما أولًا، ما أنت إلا عبد مأمور.

- بل عبد الخوف وعبد لقمة العيش!

- هون على نفسك ولا تحملها فوق طاقتها.

قال حنورة بصوتٍ تخنقه العبرات في أسى تبدى جليًّا على قسماته:

- لو كان الأمر بيدي لنسيت الموضوع وألقيته وراء ظهري وسحقت عواطفي تحت حذائي، لكنني أسير قوَّة غامضة، لعنةٍ مجهولة، تحلق حولي في كلّ مكان كالنذير.

وشخص بصره إلى سقف الغرفة وبدا أنَّه يُفكر في أمرٍ ما، عندما استطرد:

- لا بُدّ من حل، ثمة حلول دومًا حتى لتلك المشكلات التي تقف أمامنا كجدار سامق من المستحيل.

لكن الحل لم يأتِ، ومضت الأيَّام متأجّجة بالخوف، ملبدة بالقلق، مثقلة بالهم، ساعية في طريق معتم مجهول، وزاد من سوء الحال واضمحلال وضعه العام تلك الهمسات الَّتي اقتحمت حياته فجأة دون سابق إنذار. همسات لا مصدر محددًا لها كانت تتناهى لمسامعه تردد دومًا: "الظلم ظلمات"، "إنّها اللعنة"، "لا راحة ولا أمان دون قصاص عادل" لتجعل من حياته جحيمًا حقيقيًّا.

وشد ما تأثر حنورة بتلك اللطمات المتتالية التي قوَّضت نفسه، فتدهور حاله وتداعت صحته النفسية، فلزم بيته في إجازة طويلة من العمل الَّذي لم يقوَ على الاستمرار فيه وهو على هذا الحال، وعرف طريقه لبار "عوارة" بباب اللُّوق، وهو بار متواضع، قذر لا يقصده إلا الحثالة والصعاليك- فانكبَّ على معاقرة الخمر ودخان لفائف السجائر المحشوة عسى أن ينسى، أن يتبدد كلّ شيء، أن تنقشع ضبابيّة المشهد، أن تخرس الهمسات إلى الأبد، أن ينام في سلام كما قبل، لكن لم يحدث شيء البتة وبقي الوضع ككرة الثلج يتضخم يوم وراء يوم ليسحقه عمَّا قريب.

ويومًا ما كان حنورة في بار"عوارة" موغلًا في حضرة السُّكر كالمعتاد وفجأة حدث أن قام من مقعده بخطوات وئيدة من أثر السكر ووقف في منتصف الباريترنح قائلًا في وحشية اشتعلت معالمها في عينيه:

- الحل يا أولاد المتعة، الحل!

وحدث أن وقع حادثان غريبان لم يفصل بينهما إلا قرابة الأسبوع، كان الحادث الأوَّل هو العثور على مأمور سجن القناطر مشنوقًا في غرفته بشقته، والآخر هو العثور على قاضٍ بمحكمة مشنوقًا أيضًا بنادٍ رياضي كان يذهب له لممارسة رياضة الجري. واهتز جهاز الداخلية للحادثين المتتابعين ووقفوا حيارى أمامهما لتشابه طريقة التنفيذ أولًا ولعظم شأن وقدر الضحيتين في جهازهما الوظيفي والمجتمع ثانيًا، ومادت الأرض أكثر من تحت قدمي الداخلية بعدما توالت الأيَّام تباعًا بالفشل في الكشف عن أيّ دليل ولو تافه يقودهم إلى درب الحقيقة، وهو الفشل الَّذي قابلته وسائل الإعلام بالسخرية القارحة والاستهجان.

وبينما كانت التحريات والتحقيقات تتواصل لضبط الجناة وكشف ملابسات الحادثين الغامضين كان حنورة نائمًا في بيته بهدوء وسلام، لم يطارده في أثناء نومه الكابوس إيَّاه مجددًا فغط في نوم عميق لم ينَمْ مثله من قبل حتى إنَّ صوت شخيره ارتفع عاليًا يصدح في غرفة نومه ليهز زجاج النافذة كأزيز طائرة تطير في سماء منطقة سكنه!

اختفى الكابوس، اختفى الهمس، اختفى كلّ شيء وكأنَّه لم يكُنْ.

مقهى الأزهار

جذبني في سنوات مُراهقتي الأُولى مقهى الأزهار الواقع بباب اللوق، شدَّني المقهى نحوه بقوة غريبة وبسحر أغرب وقتما دخلته للمرَّة الأُولى عندما كنتُ أتسكَّع هُنالك بوسط البلد عقب خروجي من مدرستي الثانوية.

المقهى يلفه التاريخ ويملأ جنباته عبق القِدم بداية من صاحبه المعلم يونس المحلاوي الَّذي يحمل على كاهله أكثر من ثمانين عامًا مرورًا بالحوائط المُزدانة بالصور "الفوتوغرافية" للمحلاوي نفسه مع جلالة الملك فؤاد والملك فاروق ملكي مِصر والسودان إبان مصر الملكية عندما حلَّ الاثنان ضيفَين على مقهاه في مناسبتين إحداهما افتتاح مجلس النواب والأخرى موكب المحمل، ولا تغفل العين كذلك البُسُط الفارسية المُعلقة على الحوائط، المقاعد الأرابيسكية العتيقة، وكذا الطَّاولات المعدنية ذات السطح الرخامي الَّتي لم يفلح الزمن في طمس وتغيير معالِمها بجانب سقف المقهى الَّذي تشخص له الأبصار وتنجذب له العيون لجماله الآخاذ بطِلائه ذهبي اللون ونقوشه وزخارفه العربية الأصيلة.

وبمرور الأيَّام والسنين أصبحتُ واحدًا من رواد المقهى المعروفين، انصهرتُ وسط معالِم المقهى برواده ومقاعده وطاولاته وكُل شيء، كنتُ من المتيمين بمجلس المعلم يونس المحلاوي وكم أغرَقَ أذني بكثير من القصص والحكايات عن الأسماء اللامعة الَّتي كانت تتخذ من الأزهار مركزًا لعقد الندوات الثقافية وفيها تحتدم المناقشات وتتعدد الآراء، حظيت كذلك بسماع أشعار الأستاذ درويش المُسكِرة للنفس، انعقَدت بيني وبين أبو سنة وسماحة وسُنقر صِبيان المعلم أوَاصرُ من الصداقة والمحبة كتلك الَّتي انعقَدت بيني وبين مشمش القط ذهبي اللون الذي كان يواظب على التمسُّح بي يوميًا وهو يراني أتناول الشطائر طمعًا في أن أشاطره بعضها!

وفي صباح أحد الأيام كنتُ ذاهبًا للأزهار كالمعتاد عندما بُوغت بورقة ملصقة على المقهى المُغلقة أبوابه تنعى وفاة المعلم يونس المحلاوي مالك المقهى.

دهمني الحزن ووقفت أقرأ الورقة ذاهلًا أكثر من مرَّة لا أصدَق وفاة المعلم يونس، كنت يوم أمس في رحاب مجلِسه العظيم نضحك معًا وكان موفور الصحة مُتمتعًا بها ولم يشتكِ من أيَّ شيء.

ذهبت لسُرادق العزاء لا معزيًا بل واحدًا من أفراد أسرته، مدفوعًا بحبي له، مُتلقيًا واجب العزاء فيه من كل أحبابه وأصدقائه، حزنت أيما حزن على رحيل المعلم يونس وكذا على إغلاق مقهاه مؤقتًا، حدادًا على

روحه، دهمني شعور مريع بالوحدة واجتاحت نفسي الغربة. كان الأزهار عالمي الخاص، كرجل مأخوذ بالتاريخ محبًّا للنوستالجيا.

ومضى على وفاة المعلم يونس شهر أو ما يزيد قبل أن تأخذني قدمي نحو الأزهار مُجددًا ولما وصلت لم أرَ الأزهار الَّذي عرفته وأحببته.

انتقلت ملكية المقهى لحفيد المعلم يونس فقام بحملة لتغيير طابع المقهى القديم، تغيير تمخض عنه طابع من الحداثة والعصرية بالمقهى، اختَفَى الطابع القديم وتلاشت رائحة التاريخ لصالح العصرية بداية من الطلاء والزخارف الَّتي طُمِست بالسقف مرورًا بالمقاعد الإسفنجية المُغطاة بالقطيفة بدلًا من الأرابيسكية، حتى صور المعلم انتزعت من الحائط وحلت محلها صور "فوتوجرافية" لفريق غنائي غربي شهير!

رحل أبو سنة وسماحة وسُنقر صبيان المرحوم وغادروا المقهى وجاء بدلًا منهم طاقم من الشباب بسن المُراهقة يرتدون زيًّا موحدًا لم أسترح لهم مُطلقًا خاصة مع وجوههم التي لا تفتر ثغورها عن ابتسامة أبدًا! لم أرَ تلك الوجوه الَّتي اعتدت رؤيتها وإلقاء السلام عليها ومصافحتها والتحدث معها من رواد المقهي، قال لي صاحب "كشك" مقابل للمقهى: إنَّ زبائن الأزهار تبعثروا هُنا وهناك في عدة مقاهٍ أخرى مُتفرقة ومنهم من لزم منزله! حتى القط مشمش غادر المقهى ولم أرَه وأنا أجلس بالأزهار مُنتظرًا قدومه متمسحًا بي كالمعتاد وكأنَّه يعلن استياءه هو أيضًا!

غادرت المقهى في مرارة كمذاق تلك القهوة اللعينة الَّتي لم أحتسِ إلا القليل منها، غادرت وروحٌ من الكآبة والحزن تتكاثف داخلي، فقدت اليوم عالمي الخاص الَّذي تعلقت به فاستفحل الضيق والألم في نفسي، لم تأخذني قدمي إلى مكان معين، ظللت أتسكع بالساعات باحثًا عن روح الأزهار في مقاهي وسط البلد بعيون تتألق بالشوق لكنني مع الأسف لم أصل إلى شيء، كل شيء يتشابه عليَّ، لا مقهى يقارع الأزهار ولا مقهى مثله على الأقل بالنسبة إليَّ، عدت أدراجي لمنزلي ساحبًا ورائي خيبة الرجاء والأمل.

بمرور الوقت اعتدت عالمي الجديد دون مقهاي المُفضل، وكُلما هزني الحنين واعتصرني الاشتياق كنت أذهب إلى باب اللوق حيث الأزهار في هيئته الجديدة التي بُعث عليها لألقي إليه نظرة تداعبني فيها الذكريات التي كانت لي أيَّام داخله.

عشماوي وأنثاه

"لولا الشهوة الجنسية لدخلنا الجنة دون حِساب!"

غمغم عشماوي بتلك الجملة وهو يخترق هذا الميدان مُتجهًا إلى بائع الأسماك بتلك الناصية ذات التلاحم البشري الكثيف.

" لولا الشهوة الجنسية ما كانت زينات تتحكم بك يومًا!"

جملة ثانية خرجت منه مع تلك الآهة الحارة.

"أيّ شهوة جنسية تلك التي تُطاردك كمطاردة الذُّباب لحامل غزل البنات؟!".

جملة ثالثة لكن تلك المرَّة خرجت منه استهانة لضعف حاله.

كان يقف متسمِّرًا أمام دُكَّان الأسماك مُنتظرًا دوره وسط العشرات عبر سُحب كثيفة هائلة من أدخنة شواء الأسماك وأبخرة القلي التي تملأ المكان حتى ضاق بها صدره.

" أخْصِ نفسك لتستريح يا عشماوي!"

جاء دوره أخيرًا، سأل البائع عن سعر الكيلو جرام الواحد من جمبري "الجامبو"، بُوغت بسعره المُلتهب، لا يهم! كُلُّ شيء يهون في سبيل إذلال زينات وقهرها، كانت قد عاتبته أكثر من مرَّة عن شراء الجمبري دون أن يطلب من البائع تقشيره وإعداده للأكل مباشرة، تقشير الجمبري وإعداده يُرهقها أيما إرهاق، لكنَّه سيحضرهُ دون تقشير نكاية فيها

وسيجعلها هي من تقوم بالمهمة، أليست زوجة وربة منزل مسؤولة مسؤولية مباشرة عن الطعام؟ أقسم على طحن عِظامها إن لم تطبخه اليوم بيديها.

نَقَدَ عشماوي السَّمَّاك ثمن بضاعته وغادر دُكّان السمك مُسرعًا نحو منزله.

" لولا عضوي المنتشي يا بنت اللبؤة...!"

قالها عشماوي وقد أظلم وجهه وكاد يحترق غضبًا، بنت اللبؤة تتمنع عنه منذ قرابة الشهر لم يتسنَّ له معاشرتها رغم حالة الهياج الجنسي التي تثور داخله كالبركان، والسبب؟

قالت له منذ آخر ليلة التهم فيها جسدها الطَّازج التهامًا: "لا معاشرة إلا بعدما تحلق شاربك!".

واستطردت زينات وقتذاك: "شاربك يوخزني كالإبريا عشماوي. هل تزوجت قُنفُذًا وأنا لا أدري؟!".

صرخ فيها عشماوي وقتذاك "أحلق شاربي؟ هل جننتِ يا بنت الصَّرمة؟ منذ متى وعشماوي دون شارب يا "ولية"؟ أمرك عجيب حقًّا! هل تريدين أن تجعلي مني أضحوكة ومسخرة لكل من هبّ ودب؟!".

وعرج عشماوي على مدق تُرابي يختصر نصف المسافة إلى منزله ومعالِم الغضب ترتسم على وجهه وكلمات زينات الجارحة ووعيدها يرن في أذنيه، وداخل نفسه التي تقاطرت بداخلها مشاعر من الغضب

والغيظ لعن ضعفه وذُله أمام زينات! سخر من نفسه الضعيفة وخذلانه أمام تلك الأنثى المثيرة الشهيَّة! لعن اليوم الَّذي تزوجها فيه بعد وفاة زوجته، لو كان أمضى حياته بعدها أرمل لكان أطيب وأكرم له من زواجه تلك الأنثى العشرينية الفائِرة الأنوثة الَّتي تتلاعب به كالكُرة "الشراب".

ومع تمنعها عن معاشرته لشهر كامل ورد على خاطره تطليقها وطردها من المنزل غير مأسوفٍ عليها! لكن.. لعنة الله على قدِّها الميَّاس ونهديها الشامخين ومؤخرتها الرَّجراجة! تنحشر جملة "أنتِ طالق" في بلعومه كاللُّقمة اليابسة وتتقهقر عزيمته وإرادته الصُّلبة أمام جمال زينات.

شارف عشماوي على الوصول لمنزله عاقدًا العزم على طحن عِظام زينات لو تمنعت عنه تلك الليلة، ليس هذا فحسب بل سيرمي عليها يمين الطَّلاق. لقد نفد صبره حقًّا، حتّامَ ينتظر؟ حتام ينتظروكرامته تتصدع يومًا وراء يوم من وراء هذه اللعوب؟ عشماوي الَّذي توجل من ذِكر اسمه القلوب والمسؤول عن تسليم الأرواح لملاك الموت لن يهتز له رمش بعد الآن منك يا زينات يا بنت اللئيمة.

دخل منزله، فتح باب شقته والدماء الحارة تغلي داخله استعدادًا للموقعة الحاسمة، ألفى زينات جالسة على أريكة تتكحّل في دلال، كانت ترتدي قميص نوم أسود اللّون بدا مُتسقًا مع بياضها الناصع المُشرب

بحُمرة خفيفة، ترسب في صدر عشماوي عطر زينات الفوَّاح المُفضل له المهيج لشهوته كما تُهيج عاصفة قوية بحرًا أو مُحيطًا.

لم يلق عليها السلام أو التحية وكانت ملامح وجهه منقبضة، نهضت من الأريكة متبخترة ووقفت أمامه ولفت ساعديها حول خصره وألقت عليه ببصرها لتشمله بنظرة متفحصة قبل أن تقول بغنج:

- أوحشتني!

انبسطت ملامح وجهه المنقبضة وتبخر غضبه وتيقظت حواسه كلها. شعر بخدر لذيذ يتسلل داخل نفسه وتلك الشهوة الَّتي لم يستطع مغالبتها تتلاطم داخله كموج البحر وتضربه في عنف كلما تقترب منه تلك الأنثى الجبارة. جذبها نحوه وضمها في عنفٍ لصدرهِ كضمة القبر ثمَّ أخذ يلتهم شفتيها المكتنزة في نهم، وضعت راحة يدها البضة حائلًا بين شفتيها وشفتيه قبل أن تقول في لهجة ذات مغزى:

- «شنبك» يا رجل!

ازدرد عشماوي لعابه في سرعة وهو يكاد يفترسها بنظراته قبل أن يقول وقد خارات قواه واستسلم تمامًا لسحرها:

- والختمة الشريفة لأشيله بكرة!

ودلف بصحبتها إلى غرفة النوم يفرغ فيها شهوة شهر من الحرمان.

***

وكان صباح اليوم التالي هو أوَّل يوم لعشماوي في العمل في "طُرة" دون شارب، ومع نظرات الاستنكار والدهشة والسخرية الَّتي صاحبته في كُل خطوة يخطوها بالسجن من الجميع بما فيهم مأمور السجن شخصيًّا فإنَّ ذلك لم يكن يعني لعشماوي أيَّ شيء. فقط ابتسم وضحك داخل نفسه هازئًا. لن يحدث شئ لو أصبح عشماوي دون شارب، هل ستنقلِب الدنيا؟ هل سيطلبون منه التوقف عن تسليم الأرواح لعزرائيل؟ وهل سيستنكر عزرائيل نفسه ذلك؟ أبدًا! ليذهب شاربه للجحيم! المهم أنَّ تلك الأنثى راضية كُلُّ الرضا عنه وستُسلم إليه جسدها الطري طواعية وهذا هو الأهم من شاربه وربما شوارب العالم كله.

المهزوز

بدأت حكاية عامر الصعيدي عندما كان يجلس على هذا الطوار العريض المقابل لهذا المقهى الشهير بوسط البلد يتلذذ باحتساء كوب من الشاي الأسود بعد يوم من العمل الشاق وبجواره تستقر عربة البطاطا الخاصة به، يتصاعد من فوهة مدخنتها دخان مشبع برائحة البطاطا المشوية، وكان قد خلع عمامته الَّتي يعتمرها دومًا صيفًا كان أو شتاء ليهرش ذؤابة رأسه ويجفف في الوقت نفسه جبينه العريض من العرق وفي تلك الأثناء حدث أن توقّف أمامه شاب ليتفحَّصه في دهشة ولم يلبث أن طلب منه في لطف التقاط صورة معه بهاتفه المحمول.

وبُعيد ذلك انقلب حال بائع البطاطا رقيق الحال وبات من المشاهير –على الأقل بين رواد وسائل التواصل الاجتماعي- فقد اتَّضح للصعيدي فيما بعد أنَّه يشبه –وسبحانه تعالى في هذا- سعيد مرجان المفكر والفيلسوف الَّذي أعدمته السلطة الحاكمة قبل عامين بتهمة نشر أفكار هدامة تدعو في خبث للانقلاب على نظام الحكم وزعزعة أمن واستقرار البلاد كما جاء في عريضة الاتهام، وفي الحقيقة لا يعرف عامر الصعيدي مَن سعيد مرجان. حتى إنَّه لم يقرأ له ولا كلمة من كتبه وفلسفاته وكذا لم يشاهده ولو حتى مرَّة على شاشات الفضائيات عندما

كان ينزل ضيفًا في عدة برامج تهتم بالأساس بالشأن السياسي، الصعيدي رجل في منتصف الأربعينيات من عمره نزح من الصعيد الجواني قبل عقدين من الزمان للقاهرة سعيًا وراء رزقه بواسطة عربة البطاطا، الصعيدي رجلٌ بسيط "وبتاع ربنا" كما يُعرف عنه، فلا يعرف مرجان ولا ترتان، كل ما يعرفه وكل ما يهمه هو لقمة العيش التي يركض خلفها كعداء أوليمبي ولا شيء غير ذلك.

وبُعيد الصورة التي التقطها الشاب معه وقام بوضعها على صفحته الشخصية في موقع التواصل الاجتماعي الشهير "فيسبوك" فألهبت مشاعر الآلاف من محبي وتلاميذ المفكر الراحل، بات الصعيدي في مكانه المعتاد بباب اللوق حيث تستقر عربته مزارًا سياحيًا لمن يدفعهم فضولهم لمشاهدة نسخة الراحل سعيد مرجان في صورتها التي بعثت من جديد! وكان الصعيدي رجل طيّب يستقبل زواره في بشاشة ويلبي طلباتهم بالتقاط صور معه في لطف، ومن نافلة القول كذلك أنَّ أحواله المعيشية انتعشت هي الأخرى وانفجرت نافورة رزقه بسبب تلك المفارقة المدهشة. فبعدما كان يبيع بضع حبات من البطاطا في اليوم الواحد تضاعف حجم مبيعاته إلى عشرات الكيلوجرامات في اليوم ولما لم يعد قادرًا على ملاحقة طلبات شراء البطاطا من زواره ألحق صبيًّا بالعمل معه.

وانتفخ بالون شهرة الصعيدي أكثر وأكثر ليصل إلى إحدى القنوات الوثائقيَّة الأجنبية التي استعانت بلقطات له بمقابل مادي كبير أدخلتها ضمن سياق فيلم تسجيلي تنتجه يوثق تاريخ حياة ونضال المفكر الراحل منذ وقت بزوغ نجمه كمفكر حتى يوم إعدامه من قبل السلطات.

وطار جزء كبير من حكاية عامر الصعيدي للجهاز السيادي بالدولة، في البداية لم يحفل الجهاز لذلك الصخب المنتشر حول بائع البطاطا، فكان الصعيدي بالنسبة إليهم مهرجًا أو عبيطًا، وكان الاعتقاد السائد لديهم أنَّ فقاعة الحدث ستنفجر لا محالة مع الأيَّام وسيأخذ الحدث وقته ثم ليتلاشى لتطغى أحداث أخرى مثيرة على الساحة تلتهم حادث بائع البطاطا، كقصة الراقصة الأرمينية الشهيرة وعلاقتها الجنسية بمدير مكتب وزير السياحة التي طفت على سطح الأحداث بالبلاد فجأة بين عشية وضحاها فكانت حديث الأحاديث بين كثيرين في مجالسهم بعدما كانوا يتحدثون في غضب عن موجة غلاء الأسعار الَّتي لم تشهدها البلاد عبر تاريخها.

لكن حكاية بائع البطاطا لم تتلاشَ ولم تنفجر فقاعتها بحسب توقعاتهم. فالقصة آخذة في التضخم كقلب عليل، وصنع منها النّاس قبة وهي التي بدأت حبة، وتردد اسم سعيد مرجان مئات المرَّات وترامت التعليقات حول نضاله هنا وهناك حتى إنَّ ذيوع تلك الحكاية لفت انتباه الرَّجل الكبير وانزعج منها! لذا فقد تراءى لهم أنَّه من الخطورة

والسذاجة تجاهل هذا الموضوع، فالجُرح الَّذي التأم قبل عامين قد يفتح مجددًا، وربما تتسبب الهالة المنتشرة حول شبيه مرجان في تأجيج الرأي العام والقُوى الثورية نحو المطالبة بإعادة فتح الملف من جديد، ملف إعدام مرجان، الملف الَّذي حامت حوله الأباطيل وتضاربت التفاسير قبل أن يوارى الثرى رفقة جثمان مرجان .

ولا يعرف زوّار بائع البطاطا لِمَ اختفى الرَّجل فجأةً صبيحة أحد الأيَّام، المؤكد بحسب رواية لشهود عيان أنَّ سيارة توقّفت أمام عربته في هذا المساء المتأخر وخرج منها رجلان تحدثا مع الصعيدي بضع ثوانٍ قبل أن يستقل السيارة برفقتهم لجهة غير معلومة! المؤكد كذلك أنَّ عربة البطاطا اختفت من مكانها الَّذي كانت تحتفظ به قرابة العشرين عامًا لتلحق بصاحبها هي الأخرى! المؤكد كذلك أنَّ إشاعة قوية بثها أشخاص بعينهم قد انتشرت لتؤكد سفر الصعيدي للخارج لتصوير فيلم وثائقي عن المفكر الراحل! سفر للخارج دون تذكرة عودة على الأرجح كما يقولون!

مائِدة من السماء

طرق الشحات باب شقة الشيخ غانم أبو محمود جاره بالبناية وإمام زاوية النور بهذا الحي الفقير بإمبابة، فتحت له زوجة الشيخ الباب، رحبت به باسمة ودعته للدخول وهي تتقهقر إلى الخلف مُفسحة له سبيلًا كي يدخل، دخل الشحات وجلس على أريكة مُتهالكة كالحة اللّون مُهترئة الأطراف مرتوقة في أكثر من موضِع، لا ريب أنَّها الأريكة نفسها التي دخل بها العروسين منذ أكثر من ربع قرن من الزمان! هكذا غمغم الشحات وهو يجلس منتظرًا قدوم الشيخ غانم.

ولم يلبث الشحات منتظرًا إلا دقيقة حتى أتى الشيخ غانم فألقى السلام على الشحات الَّذي تهللت أساريره وقتما رأى الشيخ، فهب من مجلسه وعانق الشيخ عِناقًا حارًّا، وفي العِناق تسللت رائحة المِسك الطيبة التي يتعطَّر بها الشيخ لصدر الشحات لتغمره بالراحة والبهجة، وبعد وصلة من التحيات الحارة والسؤال عن الصحة والحال والمعايدة الرقيقة بين الجارين بمناسبة قدوم شهر رمضان قال الشحات للشيخ غانم في جدية:

- جئتُك يا مولانا في أمرهام.

قال الشيخ أبو محمود وهو يجلس مُتربعًا مُتمتّعًا بهالة من الوقار والهيبة:

- خيريا بُني.

زفر الشحات بقوة وتنحنح وقال بارتباك واضح:

- جئتُك سائلًا فتواك في موضوع ما.

قال الشيخ بهدوء:

- سل ما شئت يا بُني، كلي آذانٌ صاغية.

قال الشحات بتلعثم وهو يلقي ببصره إلى الأرض مُتحاشيًا النظر إلى وجه الشيخ:

- أتعرف الراقصة فيفي فؤاد؟ لا ريب أنَّك يا مولانا سمعت عنها، المهم أنَّ أخبارًا وصلت إلي تؤكد أنَّها ستُقيم مائدة إفطار لوجهِ الله اليوم بالشارع الرئيس في الحي، مائدة إفطار عظيمة، عامرة بشتى أنواع الطعام، وحافلة بما لذَّ وطاب من الحمام المحشي والديوك الرومية مرورًا باللحوم المشوية والمحمّرة ناهيك بالثريد والأرز والطَّواجن وخلافه.

وأطرق الشحات مليًّا يزدَرِدُ لعابه، وفي تلك الأثناء رنا بعينه إلى الشيخ ليكتشف أثر كلامه في نفس الشيخ، فوجده واجمًا، فاستطرد قائلًا:

- والسؤال الآن يا مولانا، إفطاري أنا وأسرتي على مائدة راقصة حلال أم حرام؟

ثوانيَ، ران على المكان صمت رهيب لم يقطعه إلا صوت سباب قارح في غاية البذاءة بين سيدتين أتى من الحارة فاقتحم مسامع الشحات والشيخ، الَّذي قال بهدوء وهو يعبث بلحيته المُسترسِلة:

- ماذا تُريد يا بُني؟

هتف الشحات بدهشة:

- فتواك يا مولانا!

قال الشيخ غانم ساخرًا:

- وهل سؤالك هذا يا ولدي يحتاج إلى فتوى مني؟ أستغفر الله العظيم، ولا إله إلا الله، كيف أسمع هذا الكلام منك وأنت الرجل الطيب المُتدين بطبعك؟ قُل لي يا بُني هل تريد أن يدخل جوفك أنت وأسرتك طعام حرام، وأنت تعرف حق المعرفة أنَّه أتى من هز راقصة لخصرِها وتعريها أمام خلق الله من السكارى والماجنين في عُلبة من عُلب اللَّيل؟ قُل لي ماذا ستقول لله عندما تقف أمامه ويسألك لِمَ قبلت الإفطار من مال حرام شرعًا و...؟

قاطعه الشحات قائلًا:

- سأقول له إنني كنتُ جائعًا، والجوع كُفر يا مولانا. سأقول له إنَّ اللحم لم يعرف طريقًا إلى بيتي منذ قُرابة الشهر، سأقول له

إنَّني عاطل عن العمل منذ شهرين ولم أعُد قادرًا على تدبير نفقات ومُتطلبات أسرتي، سأقول له! سأقول له..

وبتر كلماته بغتة وأجْهَشَ ببكاء حار، فهب الشيخ من مجلسه، وجلس بجوار الشحات وكفكف دموعه وقال له باسمًا:

- خواء البطن أفضل من خواء القلب من الإيمان ورضا الله.

رمقه الشحات في استهانة، وقال والدموع لم تزلْ تنساب على وجنتيه:

- تقول هذا لأنَّ الجوع لا يعرف سبيلًا لبطنك ولم يعضَّك يومًا.

تَقلَّص وجه الشيخ وانقلبت سحنته من معالِم الرضا إلى الكدر وهتف بحنق:

- ومن قال لك هذا يا بُني؟ أنا أيضًا لمْ أذُق اللحم منذ فترة، وطعامي من البقول والخضراوات المجردة من اللحم! تُرى هل يكفيني معاش الضمان الاجتماعي البائس الَّذي تتفضل الحكومة بإلقائه إليَّ مطلع كُلَّ شهر؟ قُل "الحمد لله" يا ولدي واستغفر ربك الكريم.

ندت من الشحات آهة حارة يتصدع منها قلب الكافر قبل المؤمن وشت بما يختلج بصدره من آلام وضيق، ثم نهض من جلسته وشكر الشيخ غانم على فتواه، وقبل أن يغادر الشقة قال للشيخ بهدوء:

- إنَّ الله غفور رحيم.

وصفق الباب خلفه في قوة تاركًا الشيخ شارد اللُّب، يعبث بلحيته وعدة مشاعر تعتمل داخل نفسه.

وصعد الشحات لشقته، وكانت عقارب الساعة تُشير إلى الخامسة والنصف مساءً ولم يتبقَّ على مِدفع الإفطار إلا سويعة واحدة أو أقل، وفي تلك الأثناء اخترقت أنفه وهو يصعد إلى شقته رائحة لحم مشويٍّ على الفحم من شقة المعلم منصور الفيل تاجر "الخردة" بالسبتية، هيّجت رائحة اللحم المشوي آلام وأحزان وضيق الشحات، وكذا حركت أمعاء بطنه الَّتي أصدرت أطيطًا تعلن فيه استسلامها وضيقها جوعًا! فعضّ الشحات على شفتيه في مرارة وقهر وواصل صعوده إلى شقته والشعور بالاستسلام لكُلِّ شيء يتسلل لأعماق نفسه.

***

وكانت مائدة إفطار الراقصة الشهيرة عظيمة بحق كما تناقلت الألسُن، ناهز طول المائدة قرابة الخمسة عشر مترًا وحفلت بما لذَّ وطاب من أجود وأفخر وأطيب الأطعمة الَّتي أعدت بواسطة أمهر الطَّباخين بالقاهرة، وحتى الراقصة الشهيرة كانت هناك وكانت تتنقل بين المقاعد حرصًا منها على خدمة الصائمين أيَّما خدمة وتوفير سُبل الراحة لهم في إفطارهم.

واندلق الشحات في الأكل هو وأسرته كاندلاق المياه من السطل على الأرض لتغمر كُلَّ شيء، فأكل في شراهة ونهم كما لم يأكل من قبل، حتى إنَّه كاد يبكي من فرط اللذَّة والنعيم.

وفي تلك الأثناء وهو يأكل مع أسرته اخترق مسامعه صوتًا جهوريًّا مألوفًا قادمًا من آخر المائدة يسأل الراقصة الشهيرة مزيدًا من الكُفتة في صحنه! التفت الشحات في حدة إلى مصدر الصوت ليتباغت بالشيخ غانم أبو محمود مع زوجته، يجلسان في آخر المائدة ويأكلان في شراهة كما يأكل الجراد الزرع الأخضر!

ولاحت على شفتي الشحات ابتسامة ساخرة ثم هز كتفيه استهانة! وعلى الرغم من ذلك لم يكترث أو يتوقَّف عند الأمر كثيرًا، فقط طفق يأكل مُجددًا وكلما ملأ بطنه أكثر وانتفخت من ضغط الطعام، بدأ يسري داخل نفسه شعور بالشبع والراحة والسرور.

شيء منها

كان لا بدَّ أن يلفت سالم المناويشي الأنظار.

شخص غريب مثله يقتحم هذه الحارة المتواضعة الملتوية كثعبان والضيقة كأنبوب صرف، عصر هذا اليوم بسيارته الفارهة الَّتي يقودها سائق خصوصي ويهبط منها لامعًا متأنقًا ورائحة الثراء تفوح منه متمتعًا بمظاهر الوقار والهيبة والأبَّهة الغريبة على صعاليك وحثالة أهل الحارة كانت كلها أسباب منطقية للفت الأنظار تجاهه وجَعْل عَشرات العيون تلقي ببصرها إليه في دهشة وفضول.

لكن سالم المناويشي لم يُبالِ بتلك العيون التي تتفحَّصه في إمعان وتكاد تهتك ستره وهو يدخل بيت السمري متمهلًا.. وبقلب تكاد تتصدع جدرانه من الانفعال.

أخذ يصعد درجات السُلّم في تؤدة، لم يتبقَّ أمامه إلا بضع خطوات ويقابل أمه، صحيح أنَّ الأعوام التي باعدت بينه وبينها طويلة كئيبة لم يرَ فيها وجهها ولو مرَّةً أو يتحدث معها بحرف واحد لكنَّه في النهاية عاد إليها، أنفق عشرات الأيَّام في البحث عن عنوان مسكنها الجديد، عندما عاد من الخارج وذهب إلى المسكن القديم الَّذي ترعرع بين جدرانه بُوغت بتلاشيه واختفائه وكأنَّه لم يكن! كلّ شيء يتغير في البلاد، حتى سحنتها القديمة من شوارع وميادين وبيوت تُطمس ملامحها وتتبدل إلى

أخرى، استخرج المالك ترخيصًا بهدم البيت بداعي تهالكه وكونه خطرًا على حياة السكان والنَّاس، فتفرق وتبعثر سكانه الأصليون وفيهم أمه، كان عليه أن يضل طريقه أيَّامًا، سعيًا وراءها حتى هداه الله وابن الحلال لعنوان مسكنها الحالي ببيت السمري.

كان قد صعد للطابق الأوَّل وتوقّف أمام باب شقتها يضبط انفعالاته التي تموج داخله، ازدرد لعابه وعض شفتيه في مرارة شاخصًا بصره إلى الأعلى مسلّمًا بصعوبة اللقاء المرتقب، بأي وجه سيقابلها؟ ماذا سيقول لها عن الغيبة الطويلة والإهمال والجحود والجفاء والتجاهل والعقوق والتهميش؟ لائحة شائنة من الجرائم ارتكبها بحقها، يا للضعة! أيُّ نوع من الأبناء هو؟ بم سيفسر لها كل هذا؟ بالعمل الشاق ليل نهار كالحمار حتى أضحى من أصحاب الملايين؟ هيهات! أنَّه يعرف تمام المعرفة أنَّ أمه فطنة لماحة لن تنطلي عليها تلك الذرائع الواهية. من يُرِدْ يستطعْ، ومن لا يُرِدْ فسيختلق الأعذار، هكذا كانت تقول له دومًا. ستفحمه بردودها وستسخر منه وربما تقهقه بصوتٍ عالٍ، وتطرده من الشقة بضربه على مؤخرته بالمقشة كما كانت تفعل في الماضي بُغية تأديبه! كل الاحتمالات واردة مع امرأة صعبة المراس كأمه.

مزقته تلك الأسئلة وكأنَّها طعنات تضربه في الصميم، يعرف أنَّها عانت وتألمت في سنوات غيبته الطويلة، ولشد ما تجاهلها هو وكأنَّها نكرة

أو لا شيء، "أين كان عقلي من كل هذا التصحر الَّذي ضرب قلبي ونزع منه مشاعره؟" هكذا حدثت المناويشي نفسه.

لكنه لن يستسلم أبدًا. لم يأتِ ها هنا لجلد الذات، سيجثو على ركبتيه أمامها باكيًا طالبًا الصفح والغفران، سيتضرع لها ويستجديها أن تسامحه، لن تلين بسهولة فهو يعرفها حقًّا ويعرف اعتزازها بكرامتها التي مسح بها الأرض لسنوات من التجاهل، لكنَّه لن ييأس. لشد ما يكره المناويشي الاستسلام.

تنهد في حرارة وشت بما يموج من مشاعر داخله ومسح دموعه الَّتي انحدرت على وجنتيه ثمَّ طرق باب الشقة أكثر من مرَّة وبتتابع وانتظر وانتظر ومر عليه الانتظار كالدهر لكن لا مجيب.

تسرب له القلق ونهشه الاضطراب ودهمته التخيلات السود. لم يهدر مزيدًا من الوقت في طرق لا طائل ولا مجيب له، حتام ينتظر؟ كان متين البنيان ضخم الهيكل، دفع الباب بكتفه دفعة هائلة فتهاوى الباب الخشبي تحت قدميه محدثًا قرقعة قوية ومخلفًا سحابة من الغبار، دخل الشقة وتوقف للحظات بالصالة، الشقة يخيم عليها غشاء من الكآبة والغموض، رائحة الغبار تملأ الشقة وكذا رائحة الموت! تلمس طريقه في حذر وسط كتل الظلام الَّتي وقفت حائلًا بينه وبين الغرفة الوحيدة الواقعة أمام عينيه مباشرة، دخل الغرفة ولم يكد يفعل حتى ندت منه آهة وأوشك أن يتلاشى من الصدمة.

فقد وجدها ميتة، على ضوء خيوط الشمس التي انسلت من خصاص "الشيش" وجدها ممددة على الفراش جثة هامدة مرتدية كامل ملابسها، لم يكن وحده من تجاهلها. فيما يبدو أنَّها لقيت وجه ربها منذ أكثر من سنة ومع ذلك لم يشعر بوفاتها أحد. هكذا حدثته نفسه وهو يقترب منها بخطًى وئيدة وهذا الألم يزحف على قلبه على وقع المفاجأة المزلزلة. تهاوى بجانبها يرمق جثتها في وجوم وكأنَّه لا يصدق عبث القدر. جاء للاعتراف بذنوبه طالبًا الرضا فإذا هي تعاقبه بالموت. داخل نفسه ضحك هازئًا! ها هو القدر وأمه يخرجان لسانهما إليه اليوم! ها هي لعنة أبدية سترافقه كظله ليومِ الدين.

اقترب منها وطبع قبلة على جبينها ومرر يده على شعرها المخضب بالحنَّاء وأخذ يهمس في أذنها التي تحللت بعبارات وكلمات غير مفهومة بصوتٍ خنقته العبرات، لم يمضِ كثير من الوقت وهو على هذا الحال حتى غالب دموعه وأخذ يلملم أطراف جثتها المتهالكة في حذر ليضعها في ملاءة، ثمَّ عقدها في إحكام وحملها على كتفه ونزل من البيت بخطوات متثاقلة وكأنَّه يحمل جبال على كتفيه ولم يلبث قليًلا داخل السيارة يلتقط أنفاسه المبتورة مستعرضًا حوادث هذا اليوم حتى انطلقت بهما!

لعبة "الست"

كان اللواء عبد الملك الضعيف مُؤمنًا مُدركًا لطبيعة المهمة الخطيرة المُقبل على تنفيذها وهو يتجه بسيارته نحو مقام الشيخة سوسو بصحبة رتل من عربات الأمن المركزي المحشوة بالجُند المدججين بالعصي والهراوات وكذا بضع مُدرعات وجرافة وحيدة في ذيل القوَّة.

كانت مهمته مع فريقه واضحة مُحددة، هدم مقام الشيخة سوسو وتسويته بالأرض بناءً على تعليمات من السيد المحافظ شخصيًّا.

وكان السبب الداعي لهدم المقام كونه يخرج عن طَوار الشارع الرئيس بالمدينة بما يجعل حالة المروروقت الذروة متوقفة تمامًا، أشبه باللُّقمة المتوقَّفة بالبلعوم! ناهيك بالزحام الخانق حول المقام ومُحيطه عندما يهل مولد الشيخة سوسو وما يصاحبه من مقدِم المُريدين الطامعين في بركات وكرامات "الست" وكذا الغارقين في التصوُّف والمجذوبين والصعاليك والمتسولين والغوغاء وغيرهم.

وعندما تتحدث عن أصل حكاية مقام الشيخة سوسو لن تخرج بمعلومة مُؤكدة، فقط هنالك الحكايات التي تناقلتها الألسُن جيل بعد جيل، وانطلاقًا من هذا كانت هُناك حكايتان رئيستان بخصوص هذا الموضوع.

الحكاية الأولى تقول إنَّ الشيخة سوسو اسمها الحقيقي "سيسيليا" وهي يونانية الأصل، وكانت سبيَّة من سبايا جُند مُحمَّد علي والي مصر في أثناء قِتالها بحرب المورة التي قادها إبراهيم باشا، وقد أتت إلى مصر وكانت تتمتع بجمال لافت للناظرين جعل مُحمَّد علي والي مصر نفسه يشيد لها قصرًا منيفًا بأطراف المُقطم ويجعلها محظيَّة له دون غيرها، ولصعوبة نطق اسمها أطلق عليها سوسو، وبمرور الوقت أسلمت سوسو وتركت حياة الترف والبذخ واللهو الغارقة فيها كما تركت القصر وسكنت كوخًا حقيرًا بصحراء المُقطم وقتذاك ووهبت نفسها وروحها لله ولخدمة المحتاجين والفقراء والمساكين، ولما ماتت، إكرامًا لمنزلتها في نفوس من أغرقتهم بمحبتها وعطفها، شُيد لها المقام ليبقى تذكِرة خالدة بأعمالها ومن هُنا كانت بداية الحكاية الأولى.

أمَّا الحكاية الثانية فتقول إنَّ سوسو مِصرية، وكانت مجرد ساقِطة! وكانت قد أصيبت بمرض عضال، ولما شفيت منه تابت لله وتصوَّفت وظهرت لها كرامات على عباد الله! ومن هنا كانت بداية الحكاية الثانية.

وصل اللواء عبد الملك أخيرًا لوجهته، توقَّفت سيارته أمام المقام مباشرة، نزل الجُند من العربات وحناجرهم تصيح في حماس، اصطفَّ الجُند الكثيف بعرض الشارع وفي الاتَّجاهين منعًا لمرور السيارات وكذا لمنع دخول أي شخص نحو المقام، خرج اللواء عبد الملك من سيارته

وألقى ببصره إلى المقام، تفحص العشرات ممن أحاطوا بالمقام وطوَّقوه كالعقد المنضود بعدما وصلت لهم أنباء هدم المقام، تفحصهم بُغية قراءة ما تشي به وجوههم وتقييم صلابة شخصياتهم من عدمها، ترجل نحو المقام، خلع نظَّارته السوداء وهتف في قوة:

- لديَّ أمر قانوني لا يقبل الطعن فيه بهدم المقام، آمُرُكم في هدوء بالانسحاب والابتعاد عن المقام ومُحيطه حتى لا يتعرض أحدكم لأذى أو إصابة.

هتف واحد ممن يشكلون عقدًا منضودًا حول المقام وكان رثَّ الثياب، كث أشعث الشعر واللحية:

- بأيِّ حق تهدم المقام؟
- بِاسْم القانون.

قال الرجل في تحدٍّ:

- ونحن نمنعك بِاسْم الله!

وتعالت الهُتافات الهادرة من العقد المنضود مؤيدة لجملة الرَّجل الرثَّ الثياب الأخيرة، فكظم اللواء عبد الملك غيظه، أوصاه رئيسه المباشر بالتحلي بالصبر في مهمته هذه لأنَّها تمس معتقدًا دينيًّا لدى طائفة ما، لذلك فازدرد لعابه وقال بهدوء:

- نهدم المقام لنُمهد سبيلًا يسيرًا لراحة الناس، هل يروقكم الزحام الخانق بالشارع وكم مخلَّفاتِكم وفضلات الطعام والقاذورات الَّتي تملأ مُحيط المقام و...؟!

قال واحد من العقد المنضود في لهجة ذات مغزى:

- نعم يروقنا!

وهتف آخر في برود:

- مقامنا ونحنُ أحرار فيه!

وهتف شيخ مُعمَّم في غضب:

- الشارع هو العنصُر الدخيل على المقام وليس العكس! المقام الشَّريف أقدم من الشارع وحتى من المدينة ذاتها! ثُمَّ إن كان لا بُدَّ فخليقٌ بكم هدم الشارع وليس هدم المقام!

وهتف آخر في لهجة حملت تهكمًا واضحًا وكان من ضمن المتفرجين وكان يتوارى خلف جبال من المشاهدين مُتمتعًا بتواريه عن مرمى بصر اللواء:

- وهل خلت بلادنا من المشكلات المستعصية ولم يتبقَّ أمامكم سوى هدم المقام؟ اتَّقوا الله يا ناس! ثمَّ ماذا تقول في مُشكلة الغلاء ونقص "السولار" وشُح مياه الري و...؟!

قاطعه اللواء بصرامة وهو يلتفت لمصدر الصوت في محاولة يائسة لمعرفة صاحبه:

- صه! من أعطاك الإذن بالتحدث يا ابن الحرام؟!

وأطرق اللواء عبد الملك مليًّا يلتقط أنفاسه المُحملة بالغضب قبل أن يقول موجهًا حديثه لجماعة العقد المنضود:

- من فضلكم لا أريد إثارة مشكلات.

هتفت جماعة العقد المنضود في نفس واحد:

- ونحن كذلك ورب العالمين.
- إذًا عليكم بالانسحاب من المقام ومُحيطه.

هتف شاب أبيض البشرة، جميل المُحيّا قائلًا:

- مُحال!

واستطرد في قوة:

- لن نترك "الست" ومقامها فريسة لجرّافاتكم!

صاح اللواء عبد الملك في وجهه قائلًا:

- المقامات خُرافة والتبرك بها شِرك!
- من قال هذا؟!
- الكُتُب والكُتَّاب!

قال جميل المُحيّا في استهانة:

- وما قيمة الكُتُب، أمام ما تجلي وظهر أمام ناظرينا من معجزات؟!
- أيُّ معجزات؟!

- معجزات "الست"!

وانسل في خفة من جدار الجُند رجُل ربعة، أسمر البشرة يرتدي جلبابًا بلديًّا ويعتمر عِمامة مُمزقة ومُتلفَّعًا بشال مرتوق في أكثر من موضِع وينتعل مركوبًا، واتجه كالسهم نحو اللواء عبد الملك ثم ركع عند قدميه، وهتف في ضراعة وقد اغرورقت عينيه بالدموع وخنقته العبرات:

- يا سعادة "البيه" لأجل خاطر رب الكعبة مُر رجالك بالابتعاد عن مقام "الست"، لقد حملت "الولية" ببركتها و...!

وركله عبد الملك في تأفُّف منه قبل أن يسترسل في مزيد من الكلام، قبل أن يهرول جندي من بعيد ويسحب ذا الجلباب من تلابيبه ليعيده خلف جدار الجُند، وفي غضب قال اللواء موجهًا حديثه إلى العقد المنضود:

- التحذير الأخير، برجاء الانسحاب وإخلاء المقام.
- لن نتحرك قيد أنمُلة. لن ندع جرافاتكم تُدنس المقام الشريف وتزيله.

قال اللواء في نفاد صبر:

- تلقيت وعدًا حكوميًّا بتشييد مقام في منطقة ليست ببعيدة عن هنا وسيُنقل الرُفات إليه وبهذا الحل تكون المُشكلة قد حُلَّت.

زمجر رجل ضخم الهيكل، وجهه مُتَّسخ، قبيح المنظر كأنَّ أصله قِرد، وقال بغضب:

- منطقة أخرى؟ ونترُك أرض المقام المُباركة! إنَّهُ الجنون!

أوشك مِرجل غضب عبد الملك على الانفجار فهتف بصوت يقترب من الصُّراخ:

- اللعنة عليكم يا أولاد القديمة، كُلُّ هذا من أجل ساقِطة بنت زانية!

احتدمت الثورة في نفوس جماعة العقد المنضود وطفحت وجوههم بمعالِم الغضب، وقال الشيخ المُعمَّم وقد جحظت عيناه وتقلّص وجهه سخطًا:

- حذارِ من الغلط في "الست"!

هتف عبد الملك في غضب:

- اللعنة على "ستِّكم"! اللعنة ألف مرَّة عليها!

قال الشيخ المُعمَّم في لهجة تحذيرية:

- أكرر حذارِ من الغلط في "الست"! حذارِ من غضبتها!

قال اللواء عبد الملك في غيظ:

- طفح الكيل.

وأعقب ذلك بأن أخرج سلاحه "الميري" من جعبته، وأطلق عدة رصاصات في الهواء، فساد الاضطراب في جماعة العقد المنضود وتفرقوا، وتقدم عبد الملك نحو الباب الرئيس للمقام، وأطلق عدة رصاصات على قُفل الباب ومزلاجه، فانفتح باب المقام وسط صيحات الاستهجان من المتفرجين وزمجرة جماعة العقد المنضود، ولم يكَد الباب ينفتح على مصراعيه حتى هتف الرجل الرثَّ الثياب في جَزَع وقد ارتفع رجيف قلبه:

- ماذا فعلت أيُّها التعس؟

لكن اللواء عبد الملك لم يُعره اهتمامًا، فأشار بيده إلى الجرافة، فارتفع هدير مُحركاتها وهي تسير نحو المقام وعندما توقَّفت أمامه تقهقر اللواء إلى الوراء مُفسحًا سبيلًا للجرافة ثم أشار بيده إلى سائقها وهتف وقد انقبضت ملامحه:

- أريد المقام أطلالًا في ثوانٍ معدودة و...

وبتر عبد الملك عبارته بغتة عندما ندت منه آهةً ووضع راحة يده عند قلبه ثم تهاوى على الأرض.

وتكهرب الجو العام واضطرب عقب سقوط اللواء فجأة، وهرع نحوه مساعدوه الثلاثة ووجوههم تحمل قلقًا وجزعًا غير عادي، وتفحّص أحدهم نبض عبد الملك وهو يمسك ساعده ولم تمضِ ثوانٍ

وسط النظرات الذاهلة من الجميع والمُحملِقة في المشهد العجيب حتى قال الضابط في جزع:

- لا نبض، لا أثر للحياة.

واكتست الوجوه بالوجوم بعد الذهول والشرود، وكبَّرت جماعات العقد المنضود! وصاح أحدهم وقد لاح في عينيه بريق النشوة:

- هذا جزاء من يعبث مع "الست"!

ولم تمضِ دقائق عقب الحادث العجيب حتى تقهقرت القوات وهي تحمل فقيدها دون إنجاز المَهمة التي أتت من أجلها، وفي زينهُم حيث تقع المشرحة الكئيبة ثبت وفاة اللواء عبد الملك إثر أزمة قلبية حادة دهمته، لكن مُريدي ومجذوبي ومُحبي "الست" طفقوا يقصون الحادث العجيب على خلق الله من وجهة نظرهم ومن وجهة إيمانهم العميق بمعجزات "الست"، سقط اللواء ميتًا لأنَّهُ تعرض لغضبة "الست"!

ومع غرابة ولامنطقية قصة سقوط عبد الملك ميتًا، لأنَّه كاد أن يهدِم مقام "الست" الشريف، إلا أنَّها –أي القصة- قد راجت في صفوف البُسطاء ومجذوبي ومُحبي "الست" والدهماء.

ووصلت قصة غضبة" الست" على اللواء عبد الملك إلى مقر أمن الداخلية نفسها بالمدينة، وهو ما دعاهم لتأجيل هدم المقام وتوسعة الشارع الرئيس حتى إشعار آخر.

ومع انطلاق مولد "الست" في هذه الفترة من ربيع كُل عام كانت قصة ما حدث أشبه بالمعجزة والأسطُورة، وفي تلك الأثناء تعالت صيحات الشاب جميل المُحيَّا وسط جموع مُريدي ومُحبي "الست" الَّذين توافدوا على المقام لحضور المولد لينالوا البركات وهو يقول في قوَّة تحمل الإيمان:

- إيَّاكم وغضبة "الست" إياكم!

ملامح سهير علوان

"المرآة لا تكذب!

شعرة بيضاء ورب الحُسين!

شعرة بيضاء أتت فجأة كما يأتي الموت فجأة!

سُحقًا لتلك الصبغة الصينية الرديئة التي ابتعتُها من سوق العتبة!".

عضت شفتها السُّفلى في مرارة وقهر.

"وما هذا إذًا؟"

ثمَّة تجاعيد كالأخاديد تحت عينيها، تظهر لها وبوضوح كظهور شمس النَّهارفي صيفِ أغسطس الحار.

غمغمت سهير: "وعهد اللَّه هذا يوم نحسي بلا شك!".

وأطرقت مليًّا قبل أن تُغمغِم مُجددًا: "لا مناص إذًا من «البوتوكس» على سعره المُلتهب!".

وتمتمت: "للنجومية القادمة عليَّ حق!".

ثم عضت شفتها السُّفلى مُجددًا ثم شخرت استهانة.

تراجعت بظهرها إلى الوراء وهي جالسة على مقعدها أمام المرآة تصاحبها دهشة وحسرة تجلتا على معالِم وجهها الجميل.

مررت راحة يدها على صفحة وجهها وغرِقت في الدهشة وهي تتفحّصه في عناية!

لشد ما ركضت السنوات في سرعة كركض الخيل في مِضمار السباق. تتذكر أنَّها قبل عشرين عامًا كانت تحتفل في "جروبي" مع ثلة من أصدقائها بعيد ميلادها العشرين وكأنَّ الاحتفال قد حدث بالأمس القريب، وها هي السنوات تمر كالبرق ولم يتبقَّ إلا بضعة أشهر حتى تقتحم الحلقة الرابعة من عمرها ولم تُحقق بعد ما تطمح إليه في أن تغدو نجمة سينمائية لا تقارعها أيُّ نجمة أو فنانة أخرى.

من يبدأ صغيرًا وفي أدوار تمثيلية تافهة وثانوية ينتهِ به المطاف في الأغلب إلى تلك النقطة التي بدأ منها، حكمة تعلمتها سهير من خلال سنواتها الأولى في عالم السينما، فكانت تظهر في مشاهد بسيطة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة وكانت أغلب أدوارها السينمائية تنحصر في شخصيات فتاة اللَّيل أو الفتاة اللعوب أو الزوجة الخائنة، برع أيَّما براعة كُل مخرجي الأفلام الذين تعاملت معهم في توظيف جسدها البديع وملامحها الجميلة في تلك الأدوار على تفاهتها، فلم تكن كاميرا المخرج تفارق مؤخرتها أو ثدييها المنتفخين كقربة الماء قط.

في بداية حياتها كفنانة أدركت حقيقةً، مُفادها أنَّها إن أرادت دورًا رئيسًا في فيلم ما ربما يكون التنقل بين فِراش مخرج أو منتج أو نجم سينمائي طريقًا لذلك، لكنَّ التنقل بين أحضانهم لم يحرك مكانتها

السينمائية مُطلقًا قيد أنمُلة، لم يفِ أحدهم بتعهداته لها وهو يلتهم جسدها، تبخرت وعودهم لها وأضحت بلا فائدة تُذكر، تمامًا كماء شهوتهم وهم يقذفونه على جسدها العاري في نشوةِ اللذة.

وعِوضًا عن ذلك كان الواحد منهم يدس في حقيبتها رزمة مالية وهي تُلملم ملابسها الداخلية وترتديها على عجل قبلما تغادر وكأنما بذلك يعلنوها صريحة، لا دور رئيسًا، لا بطولة سينمائية.

لم يكن تحولها إلى عاهرة شيئًا ذا قيمة بالنسبة إليها. فقط ظلت على عهدها وعلى تنقلها بين الأحضان عسى أن يسفر ذلك عن البطولة المنشودة وأضغاث أحلامها المأمولة.

اجترت سهير كل تلك الذكريات ومرت كشريط سينمائي أمامها وهي لا تزال جالسة على مقعدها تتأمل ملامح وجهها، ألقت ببصرها إلى ساعة الحائط فوجدتها تقترب من السابعة مساءً موعد لقائها بأبو الفتوح وهو منتج سينمائي طفح على السطح فجأة كمنتج لأفلام هابطة ذات ميزانية بسيطة، تعرفت إليه منذ فترة ليست بالبعيدة ومثله مثل غيره وعدها بإنتاج فيلم يحمل اسمها، نفخت في ضيق وهي تغادر شقتها مُسرعة إلى بار"كارلوس" بوسط البلد للقاء المنتج.

دخلت البار المتواضع وألقت بجسدها على أوَّل مقعد صادفته، طلبت بيرة مثلجة سرعان ما أتى النادل بها، "في خدمة الشيطان بعض

الأشياء تأتي في سرعة!" هكذا غمغمت سهير وهي تلقي ببصرها إلى زبائن البار.

أغلب العيون تكاد تلتهمها التهامًا، ولا سيما هذا الأشيب الوقور الَّذي يحدق في مؤخرتها المتناسقة، بحِدّةِ بصر نسر مُقبل على افتراس جرذ! ثمَّة عيون أخرى غارقة في أحزانها تدفن الحزن بتجرع مزيد ومزيد من كؤوس الخمر، الكُل ها هُنا من أجل المواعدة والنسيان ولو مؤقتًا.

قاربت الثامنة مساءً ولم يأتِ ابن الزنى أبو الفتوح بعد، اتصلت به هاتفيًا أكثر من مرَّة ولم يجبها إطلاقًا، تميزت غيظًا وكاد مِرجل غضبها أن ينفجر، أشعلت سيجارة ودستها بين شفتيها ونفخت دخانها في الهواء بعصبية وهي تبتسم مُتخيلة أبو الفتوح يضاجع فتاة أخرى في تلك الأثناء بعد إيهامها بأنَّ سبيلها للشهرة والأضواء بات مُعبدًا الآن بعد خروجها من الفراش معه!

لم يكن غضب وسخط سهير بسبب غياب أبو الفتوح عن موعده وبالتالي ضياع فرصة أخرى تنتظرها منذ عشرين عامًا من أجل البطولة السينمائية، لم يكن بسبب هذا مطلقًا، كان سبب غضبها الرئيس أنَّ أبو الفتوح معروف عنه السخاء في الإنفاق على عشيقاته، وهي تحتاج إلى نقود أبو الفتوح من أجل "البوتوكس" الَّذي سيخفي بقدرة قادر تلك التجاعيد التي حفرها قطار الزمن السريع أسفل عينيها.

شارفت الساعة على الوصول للتاسعة مساءً ولم يتغير شيء ببار "كارلوس" باستثناء زجاجات البيرة الخمس الفارغة الموضوعة على الطاولة أمامها الَّتي ألقت سهير بشرابها في جوفها، وعلبة سجائر فارغة، ونظرات الأشيب الوقور الَّتي ازدادت حملقة في مؤخرتها.

وفي تلك الأثناء اقترب منها الأشيب الوقور يعرفها بنفسه وطلب أن يصطحبها إلى شقته! كادت أن تخلع حذاءها ذا الكعب العالي وتضربه به على أم رأسه! لكن الوقور وفي سرعة تشي بسرعة بديهتهِ كشف عن حافظة نقوده المُتخمة بالبنكنوت، كان الحادث غريبًا على سهير التي بُوغتت به فلم تدرِ ماذا تفعل! عدة مشاعر خامرتها وقتذاك وهي تنظر ذاهلة إلى العجوز.

لم تأخذ كثيرًا من الوقت في التفكير حتى تأبطت ذراع الأشيب الوقور إلى خارج بار "كارلوس" وفي داخل نفسها كانت تُتمتم: "للنجومية عليَّ حق، لولا «البوتوكس» يا أولاد الحرام...!".

يَوم آخرُ لِلرَّجل الطيِّب

نفس الشمس والقيظ وكأنَّ السماء لا تزال تعاقب من في البلاد هي الأخرى، لم تتغير سحنة البلاد المقيتة ومن فيها! نفس وجوه السَّابلة بملامحهم الذابلة، الضوضاء والصخب والسباب يخترقون الأسماع عنوة، قسمات تشي بالفقر والضنك والتعب والكلال، أُناس يرفلون في الحرير ويتمرغون في التبر وأُناس يرفلون في الخيش ويتمرغون في التراب وبين هذا وذاك أُناس يقفون في المُنتصف، حشود من البشر كالنمل يتحركون في لهوجة وعجلة في رحلة عمل روتينية رتيبة تمامًا كالساقية والجاموس، كل شيء في وضعه، كل شيء في موضعه ومحله، أين نتائج الثورة التي عصفت بالعفن كما قالوا؟ لا ثورة جادت ببركتها ولا يحزنون.

خرج زقلط يوم أمس من السجن بعد فترة عقوبة التهمت من عمرهِ سبع سنوات أو ما يزيد خلف أسواره السامِقة الَّتي حجبت عنه نسيم الحرية، خرج لا يحتكم على أي شيء في الدنيا بما في ذلك الستر الَّذي يقولون عنه! مُفلس ضائع ذليل هو، لكنَّهُ وجد في أحضان زوجته وابنته أزهار عِوضًا ولو بالقليل عن قسوة الأيَّام والدنيا الَّتي تعطيه ظهرها.

لم يكن يفصله عن بيت العسَّال إلا بضع دقائق، لن تمر سويعة حتى يعاجله بطعنة نافذة للقلب ليقابل العسَّال وجه ربه الكريم ويصبح مقتله خبرًا جديرًا بالقراءة في صفحة الحوادث وينقده العجل خمسة آلاف جنيه.

جاءه حمودة العجل مساء يوم أمس في شقته في زيارة مفاجئة بُوغت بها شخصيًّا وانقبضت معالِم وجهه على إثرها وتساءل بينه وبين نفسه كيف وصلت إلى العجل أنباء خروجه من السجن صباح هذا اليوم؟

لكن فيما يبدو أنَّ العجل توَّلدت لديه وقتذاك قدرة خارقة على قراءة أفكارزقلط وما يجول بعقله، لذا فبعد التحيات والسّلام قال له:

- كفَّارة يا ابن الحرام! لا تجعل الدهشة تعصف بك، أنا أعرف الكبيرة قبل الصغيرة، هل نسيت من أنا؟ أنا حمودة العجل يا زقلط.

وكعادة العجل عندما يتعلق الأمر بمصلحة أو مهمة خاصة دخل في سبب زيارته المفاجئة مباشرة لكن بعدما دس سيجارة محشوة بين شفتيه وناول أخرى لزقلط خطفها في شوق، فكم تاقَ إليها منذ دخوله السجن وقال العجل موجهًا كلامه إلى زقلط:

- هل ترغب في خمسة آلاف جنيه؟

برقت عينا زقلط وهتف في حماس:

- ومن ابن الزنى الَّذي يرفض هذا المبلغ في تلك الأيَّام السُّوداء؟!
- اقتل العسَّال إذًا!

بُوغت زقلط قبل أن يقول في بلاهة:

- العسَّال؟!
- تاجر "الخردة" بالسبتية.

قال زقلط مرتبكًا:

- لكن يا معلم أنا م...

قاطعه العجل وهو ينفث دخان السيجارة المحشوة:

- نعم أم لا؟ العشرات -وأنت تعرف- يحلمون بإشارة واحدة مني لتنفيذ المهمة لقاء نصف هذا المبلغ، قصدتك لعلمي بخروجك من السجن يا مولاي كما خلقتني.

قال زقلط بتوتر:

- حلمك يا معلم عليَّ! كنت أريد...

قال العجل منزعجًا وبنفاد صبر:

- نعم أم لا؟

أجابه زقلط مدفوعًا بعضة الفقر وعذاب الضنك:

- خدامك يا معلم.

وسكت مليًّا قبل أن يستطرد:

- ألفا جنيه مُقدم للمصلحة و...

قاطعه العجل في برود:

- ولا قرش واحد قبل التنفيذ.

قال زقلط في استجداء:

- يا معلم لقد خرجت من السجن يا مولاي كما خلقتني كما قلت ولا أحتكم على جنيه واحد في جيبي.

- بعد التنفيذ.

قال زقلط في ضراعة:

- أقسم لك إنني سأقوم بالتنفيذ بعد المقدم مباشرة و...

هز العجل منكبيه استهانة وأصدر شخرة قبل أن يقول ساخرًا:

- لا أثق أبدًا بقَسَم النساء ولا المجرمين!

وقتذاك لم يجد زقلط بُدًّا من الاستسلام فقال وقد غلبه اليأس:

- كما تشاء يا معلم، الأمر أمرك.

وكان أوَّل ما فعله زقلط في الصباح الباكر الذهاب إلى السبتية والجلوس على مقهى مقابل "لوكالة" العسَّال لمراقبته وتفحصه في إمعان لتسجيل أي ملاحظة ولو تافهة في عقله قد تنفعه وقتما يقضي مهمته، هكذا تقتضي أصول المهنة الَّتي تعلمها من ربيبه حمودة العجل.

بيد أنَّ تصورات وأفكار زقلط التي رسمها في عقله عن العسَّال قد تقوَّضت وقتما رآه بعينيه وليس عن طريق تلك الصورة الضوئية الَّتي أعطاها له حمودة العجل، كان العسَّال طويل القامة كعمود إنارة، ممتلئ القوام عريض المنكبين، يميز وجهه شارب كث عريض مقَوَّس كمخرطة الملوخية، لذا فقد كان انطباع زقلط الأوَّل عنه وقتما دقَّقَ النظر في صورته الضوئية أنَّهُ رجل يتصف بالقسوة والجبروت والإجرام لا يقل بأيّ حال من الأحوال عن حمودة العجل نفسه، لكن اتَّضح له من خلال مراقبته أنَّ الرجل ربما في جسم ثور لكنَّهُ مسالم كالعصفور وطيب كإسماعيل ياسين! فالعسَّال صاحب قلب كبير، أبيض كالثوب القشيب، يعامل صبيان وكالته كإخوته الصِّغار وزبائنه في مودة ولطف واحترام، ومن نافلة القول أنَّهُ لم يدخل وكالته سائل إلا مدَّ يده في جيب "السيالة" وأعطاه مبلغًا ماليًّا بوجهٍ بشوش وابتسامة صافية، داخل نفسه تساءل عن السبب الشاذ وراء تفكير أحدهم في التخلص من جسم الثور وقلب العصفور هذا؟ داخل نفسه آمن بأنَّ النفس الطيبة ليس لها مكان في تلك الدنيا، وأنَّ الطيبين يرحلون والأوغاد يبقون ولا يقتفي الموت أثرهم أبدًا.

طاف كلَّ ما حدث في ذهن زقلط وانتهى عقب وصوله إلى منزل العسَّال، تحفزت كلُّ عضلة من عضلاته للقيام بمهمته الإجرامية،

كلُّ شيء كان مخططًا ومرسومًا بدقة من حمودة العجل، سيتوارى خلف أجولة وزكائب محشوة "بالخردة" مرصوصة بعناية في مدخل منزل العسَّال ثم لا يفعل أيّ شيء إلا الانتظار حتى وقت قدوم العسَّال، سيباغته وهو يصعد درجات السُّلَّم بطعنة مباشرة في العنق أو القلب ويسرق حافظة نقوده للإيحاء بأنَّ الجريمة قد وقعت بدافع السرقة ليس إلا.

انسل إلى داخل البيت في خفة دون أن يلاحظه أحد بما فيهم تلك القطة ذات اللّون الفاقع الاصفرار، الَّتي لم تلحظه أيضًا لخوضها معركة مع قط آخر واتته الجرأة والشجاعة القُحة لدخول منطقة نفوذها.

توارى خلف الأجولة وأخرج مطواة كان يخفيها في جوربه الأيمن ومن خلال فُرجة بين زكيبتين أخذ يحدق في باب المنزل مترقبًا لحظة دخول العسَّال لتنفيذ مهمته.

مرت دقائق كانت أشبه بالدهر عليه، كان مُفعمًا بمشاعر شتى وإن كانت كلها تصُب في نهر القلق والخوف والارتباك وروافده، لعن العجل في سره ونعته بابن الزواني لعدم إعطائه ولو مئة جنيه كانت كفيلة بشراء قرش من الحشيش وبيرة وحبة "ترمادول" لإخماد ثورة قلقه وتبريد أعصابه وإخراج العملية بالصورة المُثلى.

لكن حدث أن دهمه بغتة ثِقل مُوجع أليم في أم رأسه. غريب هذا الثِّقل كونه دهمه فجأة دون سابق إنذار، خليق به اعتباره ككَبسة رجال الشرطة على "غرزة" فتحية من حين إلى آخر.

وكان أوَّلَ ما خامرهُ وقتما ذهب في عالم غير العالم، مع الوضع في الاعتبار الآلام المبرحة التي صعقته، إحساسٌ بالسباحة في عالم من الظُّلمة الحالكة، كرائد فضاء هو يسبح في عالم سرمدي مرصع بالنجوم وطاقات عدة من النور، أمَّا هو فكتل وجدران من الظلمة ولا شيء غيرهما.

لكن الألم تضاعف أكثر فأكثر بغتة كما حلَّ به بغتة، وشيئًا فشيئًا انقشعت الظُّلمة الحالكة وفتح عينيه بصعوبة وهو يتأوه ألمًا، وكان أوَّلَ ما تراءى له مع طاقة من النور تأتي من مصباح ذي إضاءة خافتة، وجهٌ مألوفٌ في ذاكرته، وجهٌ لشخص كان سيرسله في رحلة إلى العالم الآخر اليوم، وجد أمامه العسَّال!

وقبل أن يتفوَّه بحرف قال له العسَّال في مودة وبصوتٍ رفيع نسبيًّا لا يتناسب إطلاقًا مع جسده الهائل:

- سلامات.

تجمَّد زقلط وكأنَّ كلمة سلامات صفعة من كف هائلة الحجم لأمين شرطة على قفاه! كان مُمَددًا على الأرض لا حول له ولا قوَّة ولم

يزل يتأوه من الألم، فألقى العسَّال ببصره إلى زقلط وقال له وهو يُشير إلى قالب خرساني:

- لولا لطفُ الله لكان القالب الَّذي هوى من الأعلى قد سحق جمجمتك.

القالب الخرساني؟ هذا يفسر إذًا حالة فقدان الوعي و...

لم يترك العسَّال زقلط يربط الأحداث بعضها ببعض، إذ قال له:

- من أنت؟ ولم جئت ها هنا؟

وقع في الفخ إذًا، تُرى ماذا يقول له؟ جئت لقتلك يا جسد الثور؟! لكن زقلط قال في سرعة:

- أسألك الإحسان.

ثوانيَ، شمل المكان صمت، وشمل العسَّالُ زقلطَ بنظراته، وهو يحك ذقنه بسبابته وكأنَّهُ لا يصدقه، فاستطرد زقلط في صدق:

- جائع ومفلس وذليل ورب النعمة.

وكان يلهث من فرط الانفعال قبل أن يستطرد:

- طلبت الإحسان من الكريم ابن الكريم.

أومأ العسَّال برأسه مُتفهمًا ثمَّ عاون زقلط على النهوض ليدخل يده بعد ذلك في جيب "السيالة" ويعطيه مبلغًا ماليًّا في راحة يده، ليتلمس بعدها خطواته صاعدًا السُّلَّم في هدوء.

ووقف زقلط للحظات مشدوهًا ووجهه مُتقلص من التعجب يوزع بصره بين العسَّال وهو يصعد درجات السُّلَّم وبين راحة يده والخمسين جنيهًا المُكوَّرة فيها! ضربته ونازعته أفكار ومشاعر عدة في ذات الوقت، أبصر على بُعد خُطوات منه مطواته المُلقاة على الأرض بُعيد الحادث، لا تزال الفرصة سانحة أمامه كي يعاجل العسَّال بضربة ترسله إلى القبر الليلة وترسل إليه خمسة آلاف من أوراق البنكنوت التي كاد أن ينسى شكلها مع فقره وطول مدة حبسه! لكن... لكن لا! العسَّال رجل طيب وابن حلال ولم يرد طلبه مثل حمودة العجل، صحيح، العسَّال رجل طيب والطيبون دومًا يرحلون مُبكرًا ويتركون الحياة ملعبًا للأوغاد، لكن ليس اليوم، حقت الحياة على الرَّجل الطيّب ليوم آخر.

ولم يلبث زقلط أن خرج من باب البيت وهو يمسك رأسه، ولم يزل يتأوه، وقبل أن يعرج إلى الشارع الرئيس، شمل بيت العسَّال بناظريه وهو يحكم قبضة يده على الخمسين جنيهًا، قبل أن يستقل حافلة مزدحمة متجهة نحو منطقته لتبتلعه أكوام اللحم البشري داخلها.

إنهم يأكلون الكباب

حدث هذا في ثوانٍ معدودة، وأمام ثُلَّة من الأعين الذاهلة والصرخات الملتاعة.

هوى رجل يعتمر عمامة ويرتدي جلبابًا بلديًّا وينتعل صندلًا بمطرقتهِ على رأس هذا الوجيه الَّذي خرج لتوه من مطعم الكباب والكفتة الشهير بوسط البلدة، فأصدر الوجيه حشرجة الموت وجحظت عيناه وكأنَّهُ لا يصدق ما حدث له ثم تهاوى صريعًا كالجوال على طَوار الشارع مهشم الرأس مُضَرَّجًا بالدماء.

وكان من الطبيعي هرَبُ المجرم بعد ارتكابه الجريمة، لكن الغريب أن المجرم تَسَّمر في مكانهِ كالصَّنم مُقلبًا بصره في وجوم بين الجثة الواقعة بجوارهِ ومطرقته الَّتي كانت تتساقط منها الدماء على الطَّوار كالنَّدى من على الزهور.

وتصادف وقت وقوع الحادث وجود أمين شرطة شاهد الجريمة أمام عينيه، فأمسك الرجل ذا العمامة من قفاه وطلب من حلقة المتفرجين الَّتي طوَّقت ذا العمامة والجثة أن تفسح له سبيلًا للخروج، ولم تمضِ سويعة أو أقل بقليل حتى سيقَ ذو العمامة إلى قسم الشرطة، وجاءت الإسعاف لنقل الجثة، وانفضَّ المتفرجون لحالهم ولم تزل رهبة الحادث موغلة في قلوبهم.

وأمام النيابة وقف ذو العمامة في خشوع وكأنَّهُ في محراب شريف أمام وكيلها الذي ظلَّ يتفحصه من رأسه حتى أخْمص قدميه، وكأنَّه يحاول سبر أغوار شخصيته، وبعد الأسئلة الاعتياديَّة في البداية الَّتي اتَّضح من إجابة ذي العمامة عنها أنَّ اسمه مغاوري حسنين الدهشان من قفط بقنا، وأن عمره ثلاثون عامًا وأتى إلى القاهرة للبحث عن رزقه بعد جفافه ببلدته، وجه وكيل النيابة السؤال الرئيس لمغاوري قائلًا:

- لم قتلته؟

أجابه مغاوري في برود:

- لأنَّهُ رفض إعطائي كبابًا!

انعقد حاجبي وكيل النيابة وتجلت آيات الدهشة على ملامحه قبل أن يقول في استنكار:

- نعم؟

قال مغاوري في توكيد إجابته:

- قتلته لأنَّهُ رفض إعطائي كبابًا!

وأطرق برأسه للحظات، حاسرًا العمامة عن رأسه ليهرش ذؤابة شعره قبل أن يستطرد في انفعال:

- شاهدته وهو ينزل من سيارتهِ الأنيقة بعد أن فتح له سائقه الخصوصي الباب ليدخل المطعم والابتسامة تكاد تملأ وجهه لخلو عقله وباله من أي مشكلات، ووجدت أديم وجهه يصطبغ

باللون الوردي في دلالة على العافية ووفرة الصحة وخلوه من أمراض الدنيا مع كرشه البارز كقربة الماء، ثُمَّ راقبته وأنا أغلي على نار هادئة وهو يأكل في شراهة كالخنزير من هُبُور وتلال من اللَّحوم موضوعة في صحون فاخرة مصفوفة على الطاولة بعناية مع زجاجة من البيرة جاءت خِصِّيصى لجناب "البيه"، وعندما انتهى من طعامه تجشأ في قوَّة وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة بقداحة ذهبية خطفني بريقها ليدسها في فمه منتشيًا من اللذة وسُحب الدخان الهلامية تخرج من فتحتي أنفه!

وكان صدره يعلو ويهبط من فرط الانفعال عندما استطرد قائلًا:

- وعندما خرج من المطعم بعد أن أخرج حافظة نقوده المنتفخة بأوراق البنكنوت لدفع الحساب طلبت منه إعطائي نقودًا لشراء ربع كيلو من الكباب والكفتة لأنّني كنت جائعًا حد الموت وليس في جيبي قرشٌ واحدٌ، بالإضافة إلى كوني لم أذُقِ الكباب والكفتة منذ مُولد سيدي القناوي قبل عام، فرفض وهو يحدجني في قرف وبنظرات نارية، قلت له دعك من اللَّحم وأعطني جنيهًا لشراء خبز يا جناب "البيه" فرفض وكنت أعرف أنَّهُ سيرفض لأنَّ أمثاله غِلاظ القلوب لا يشعرون بنا، وكأننَّا صَراصِير أو أطياف

متحركة، لذلك هويت بمطرقتي على رأسه ولم أهدأ حتى حولتها ما يشبه الكفتة.

كان وكيل النيابة غارقًا في الدهشة وهو ينصت لكلمات مغاوري فسأله في لهجة حملت الصدق:

- وهل تجد يا مغاوري رفض المجني عليه إعطاءك نقودًا لشراء كباب أو حتى إعطاءك جنيهًا لشراء خبز سببًا مقنعًا لقتلك إياه؟

أجابه مغاوري بلا تردد:

- بكل تأكيد! لا يداخلني أيُّ شك في صحة ما فعلت.

عاد وكيل النيابة وسأله:

- هل أنت نادم على جريمتك يا مغاوري؟

أجابه في برود:

- لا.

ثم عاد وأضاف:

- أوتعرف شيئًا؟ لو عاد بي الزمن إلى الوراء لكنت هشمت رأسه بدل المرَّة ألف مرَّة!

وسكت هنيهة يسترد أنفاسه المتقطعة قبل أن يقول ووجهه ينكمش غضبًا:

- حقّ الموت على أمثاله، ما دام لم يشعر بي وبأمثالي أحد في تلك الدنيا الأحقر من ذبابة!

ولوح بقبضة يده في الهواء وصاح في شراسة انخلع لها قلب المحقق:

- كان لا بُدَّ أن يدفع أحدهم الثمن.

وأقفل المحضر في تاريخهِ وساعته.

أحد فرساتشي

تبًّا!

عِطر فرساتشي يملأ جنبات حجرة نومي ويُحلق في سمائها يوم الأحد مُجددًا.

عِطر فرساتشي الَّذي أستطيع تمييزه عن عطور العالم كُلها، لأنَّه ببساطة العِطر الَّذي ارتبط معي بذكرى حزينة أحاول أن أسبح بعيدًا عنها ونِسيانها قدر المُستطاع دون جدوى وكُلما نسيت قليلًا يجرفني التيار نحو ذكرى الحزن مُجددًا.

فرساتشي هو آخر ما ملأ شعبي الهوائية وقتما فتحت التابوت المسجى فيه جثمان والدي وأنا ألقي إليه نظرة الوداع الأخير وأملأ عيني منه قبلما يلتهمه دود القبر اللعين.

سألت مِاري زوجتي في لُطف عن سر عِطر فرساتشي يوم الأحد، ونهارًا بالتحديد عقب عودتي من الصلاة، فوجئت بها تهز منكبيها استهانةً وتقول هازئة:

- سلْ أنفَك المُدرَّب كأنف كلب بولدوج لعين.

ثم أردفت في اللهجة ذاتها التي تحمل سُخرية قارحة:

- علَّ بقاياه وقتما فتحت التابوت لم تُفارق صدرك بعد.

ابتلعت سُخريتها المُرَّة كقهوتها الصباحية في صمت رغم مِرجل غضبي البخاري وقتها لتهكمها على لحظة فارقة حزينة في حياتي، لكن

سخريتها اللاذعة جعلتني أتشكك في أنفي المُدرب على اقتفاء عِطر فرساتشي اللعين حتى لو في آخر أصقاع المعمورة أو حتى على بُعد عدة كيلومترات!

اللعنة، أنا أثق بأنفي كما أثق بتجلي العذراء للمُمتلئة قلوبهم بالإيمان! أنفي لا يُخطئ أبدًا.

بِتكرار الأمر كُل أحد بالذات دون غيره من الأيَّام ومع نفي زوجتي المُستمر لوجود العِطر أساسًا شبت في صدري مخاوف وهواجس مُترعة في الشك زرعت داخل نفسي أسئلة.

هل لديَّ فوبيا فرساتشي لو صح اسم هذا المرض عِلْميًّا؟

هل أنا على حافة الجنون منذ أن فتحت التابوت؟

هل؟ هل؟ هل؟ أسئلة عديدة تزاحمت داخل رأسي كحافلة التحرير وقت خروج موظفي الدولة من أعمالهم ظهرًا.

يا ليتني ما فتحت التابوت أبدًا.

يا ليتني ما ألقيت نظرة الوداع الأخير.

وكانت الأسابيع تمر والأحد يأتي في موعده، وفرساتشي كعهدي به طوال شهور يأتي مُصاحبًا للأحد، لا شيء يتغير. العِطر اللعين لديه إصرار غريب على اقتحام ذكرياتي وهتكها في شراسة.

ووسط صلاتي الَّتي أحرص عليها كُلَّ الحرص يوم الأحد دهمني دوار عنيف لم أستطع مع شدته استكمال صلاتي، خرجت من الكنيسة في

أسف على عدم استكمال الصلاة وعدت للمنزل وفتحت باب الشقة وأغلقته في هدوء ورائي لئلا أوقظ ماري التي تصحو من دبيب النمل نفسه.

ولم أكد أدخل الشقة حتى ملأت صدري رائحة فرساتشي اللعينة، لكن تلك المرَّة كانت الرائحة نافذة لصدري مُخترقة إيَّاه كطلقات الرَّصاص!

طفقت أبحث عن مصدر ومركز الرائحة ككلب البلدوج الَّذي شبهتني به مِاري في صالة المنزل، لم تمضِ ثوانٍ حتى وجدت المصدر، وجدت قميصًا رجاليًّا مُلقًى بإهمال على الأريكة! أمسكت القميص من ياقته أتفحصه في إمعان، اللعنة! هذا القميص ليس بقميصي، أنا لا أرتدي تلك القمصان الحريرية أبدًا، إذ لم يكُن قميصي.. فقميص من هذا؟

أسرعت نحو حجرة نومي مُتحفزًا وعيناي تتألقان ببريق وحشي، تلفح صدري نيران الشك، مُزمجرًا ككلبٍ مُقبلٍ على معركةٍ مع كلبٍ واتته الجُرأة والوقاحة أن يقتحم حِماه! فتحت باب الغرفة بعُنف ولم أكد أفعل حتى هبت عليَّ الرائحة كإعصار، مركز الرائحة ها هُنا! رباه! وجدت ماري في أحضان رجلٍ يعتصر جسدها كثعبان أناكوندا وهي تشهق وتتأوَّه من المتعة كعاهرة!

انتقام ولكن..

"من الأفضل أن يُقدّم الانتقام على طبق بارد!"

لا أذكر متى ولا أين سمعت تلك الجملة، ولا أعرف لمَ اقتحمت عقلي فجأة وأنا أُوسع من خُطواتي ودقَّات قلبي تتسارع، يتناهى وبوضوح إلى مسامعي صوتها القوي كطبلة يصدح صوتها للجماهير في استعراض عسكري!

ربما جاءتني تلك المقولة الَّتي باغتتني لأنَّني لست مؤمنًا بها حتي إنَّني لويت بوزي استهانة! فلا أجد في الحقيقة سببًا واحدًا مقنعًا يمنعني أن أنعت قائلها بالحماقة والبرود كطبقه الَّذي يود تقديمه، فالانتقام يا سادة لا بُدَّ أن يُقدم على طبق ساخن، مُشتعل إن جاز لي القول وكأنَّهُ أُعِدَّ في سقر!

وأنا أُوسع من خُطواتي و"مارش" قلبي العسكري يتصاعد مدفوعًا بمشاعر متباينة داخل نفسي تذكرت كُلَّ شيء.

تذكرت عرابي بجسده الهائل كالثور وسحنته الدميمة كقرد "البابون" وهو يشهر خنجره فجأة ثمَّ يغرسه مباشرة في قلب والدي أمام عيني الذاهلة الملتاعة في غمرة المشاجرة المحتدمة بينهما ليسقط والدي صريعًا تحت قدميْ عرابي. ولا أعرف حتى الآن السبب وراء تلك المشاجرة الهائلة الَّتي اندلعت فجأة بين الشريكين في متجر النحاس بالحسين

والتي على إثرها قتل عرابي والدي! يبقى ما بقي محفورًا في ذاكرتي وقتذاك أنَّني جلست بجوار جثة والدي أبكيه في حرقة، دافنًا رأسي في صدره الغارق في دمائه الَّتي كانت لا تزال دافئة، لامسَت دماؤه الَّتي كونت بركة صغيرة على الأرض بجوار جثته طرَفَ ثوبي فخضبته بلونها الأحمر القاني، وعلى الرُّغم ممَّا يحمله الثوب من ذكريات عصفت بي فإنَّني احتفظت به في دولاب غرفتي الصغيرة، لم أحتفظ به كذكرى للوالد بقدر احتفاظي به كحافز على المهمة الَّتي أوكلها إلي قلبي المفطور على مصرعه أمام ناظري، مهمة الانتقام منه، من عرابي شحاتة فاروق.

انتزعني من أمام شريط ذكرياتي المار أمام ناظري وصولي أمام بوَّابة ليمان "طرة". فاليوم آخر يوم لعرابي بالسجن وكذا في الحياة الَّتي سأنتزعها منه اليوم، قضى الرَّجل في "طرة" خلف جدرانه السامِقة خمس عشرة سنة! نفختُ غضبًا واحتجاجًا وتساءلت: أيُّ قانون هذا الَّذي يهب الحياة لقاتل خلف جدران السجن بدلًا من إعدامه مئة مرَّة ومرَّة؟ أوليس من قتل يُقتل أم من قتل يُسجن؟ أيُّها القانون الأعور، الأعرج.. سُحقًا لك!

ساعة أو يزيد قليلًا وأنا أنصهر كشمعة مشتعلة من الانتظار واقفًا جامدًا كالصَّنم أمام بوَّابة السجن مُترقبًا خروج عرابي، انفتحت البوَّابة أخيرًا وبعد طول صبر، تحفزت كل عضلة من عضلات جسدي استعدادًا للمهمة، طفقت أبحث متفرسًا في وجوه الخارجين عسى أن

أجد شبيه قرد "البابون" بينهم! لكن.. غريبة.. لم أرَه بينهم! لطمتني الحيرة والدهشة، سحقني الذعر والارتباك وأنا أسأل نفسي: "أين عرابي بحق الله؟ اليوم موعد خروجه وانقضاء مدة حبسه، لقد حسبت عدد أيَّامه في السجن بالدقيقة والثانية؟ أين عرابي بحق الله؟".

لم أدعْ نفسي صيدًا لمزيد من الأسئلة، فأعصابي تحترق وقلبي يكاد يتّفحم مفعمًا بمشاعر شتى، دخلت للسجن سائلًا عنه في قائمة المُفرج عنهم اليوم، جاءتني الإجابة كالصاعقة، عرابي قد أُفرج عنه إفراجًا صحيًّا قبل ثلاث سنوات.

خرجت من السجن ذاهلًا، مضطرب الأفكار. أسئلة عديدة تهرس رأسي كهراس الفول، دهمني الارتباك مجددًا بعدما تغيّرت الخطة الَّتي كنت قد رسمتها في مُخيلتي طيلة تلك السنوات الماضية، ووسط حيرتي وجدت قدمي تأخذني إلى منزل عرابي بناحية البساتين.

وصلت إلى منزل عرابي، طرقت باب شقته متحفزًا كي أغمد خنجري في قلبه وقتما يُطالعني وجهه، طرقت عدة مرات ولم ينفتح الباب، نزلت من شقته وسألت عنه صاحب دُكّان بقالة ملاصق لمنزله، وجدته يُمصمص شفتيه في أسف وهو يقول لي:

- عم عرابي! لا حول ولا قوَّة إلا بالله، المرض -كفاك شره- لعنة الله عليه.

سكتُّ للحظات محاولًا استيعاب ما يقوله قبل أن أسأله:

- وأين يمكنني أن أجده الآن؟

قال لي وهو يبعد بمِنشته الذباب عن الصَّاج الَّذي يتراص به بضع الفطائر المُحلاة بالسكر:

- بدار الربيع لرعاية المسنين.

ثُمَّ دعاني لشرب كوب من الشاي في مودة، انطلقت إلى دار الربيع مُسرعًا حتى إنَّني لم أشكره على دعوته الكريمة لشرب الشاي، الخطة تتغيّر مرَّة أخرى والأحداث تتسارع وتتأرجح كلاعبي "الأكروبات" بوتيرة جنونية، وعشرات الأفكار تتداخل بعقلي وتهرسه ثانية، ما الَّذي حدث؟ وما الَّذي سيحدث؟ لا أعرف.

وصلت إلى دارِ الربيع محطتي الأخيرة في سبيل الانتقام من عرابي، سألت اختصاصية اجتماعية عنه، قدمت لها نفسي باعتباري أحد أقاربه وجئت بُغية الاطمئنان عليه، وجدتها -لدهشتي- تنهرني في شدة وتعاتبني على عدم زيارة أيِّ فرد من عائلته له منذ تاريخ إيداعه في الدار قبل ثلاث سنوات، تعللت لها بسفري وقتذاك إلى خارج البلاد، هربًا من قسوة عتابها وثرثرتها الفارغة الَّتي لا تنقطع، عن الترابط الاجتماعي وصلة الرحم وما إلى ذلك، وكأنَّها تلقي خطبة بمؤتمر برعاية وزارة التضامن الاجتماعي! قلت لنفسي وقتها في مرار طافح: "آه لو تعرفين!" وجدتها أخيرًا تُشير بإصبعها إلى شخصٍ ما يجلس على مقعد

بحديقة الدار، تصاعدت ضربات قلبي وأنا اتَّجه نحوه متحسسًا خنجري أداة المهمة، توقفت أمامه مباشرة، كان جالسًا على مقعد شاخصًا بصره إلى السماء في بلاهة، تفحصت غريمي في عناية وإمعان. شد ما تغيّرت ملامح وجسد الرجل عن آخر مرَّة رأيته فيها منذ تاريخ الحادثة، تغيّر الرَّجُل بداية من الاحديداب الواضح في ظهره كجبل المقطم وجسده النحيل كعود قصب، مرورًا بالتجاعيد والأخاديد الَّتي تملأ وجهه، وعينيه الذابلتين كزهرتين بعيدتين عن مجرى الماء، وأخيرًا الشيب المشتعل في رأسه، وفي أثناء تفرسي في ملامح الكهل وجدته يحول بصره عن السماء وينظر إلى سرواله، وجهتُ أيضًا بصري إلى سرواله، وجدت بقعة من المياه على سرواله الرَّمادي تتسع مساحتها شيئًا فشيئًا! رباه .. الرَّجل بال في سرواله دون أن يشعر أو يهرع مسرعًا لدخول الحمام! وفي تلك الأثناء وجدت سيدة من الدار لاحظت ما حدث تهرول مسرعة نحوه موبخة إيَّاه على ما فعله وهي تساعده على النهوض للذهاب إلى الحمام، كنت في حالة من الذهول ولم أدرِ ماذا عليَّ فعله تجاه هذا الكهل الطاعن في السن الَّذي يبول على نفسه كالأطفال!

وكنت أقف ذاهلًا، مُتبلبلًا تعتمل داخل نفسي المشاعر ويختلج صدري مما شاهدته عندما وجدت عرابي قد توقَّف بغتة ثُمَّ التفت إليَّ قائلًا بصوت متهدج: "معاك حاجة حلوة يا بني؟".

رباه! عرابي الَّذي شاهدت والدي صريعًا تحت قدميه يصر على مباغتتي في هذا اليوم العجيب! أيّ ألاعيب يمارسها معي القدروعرابي اليوم؟ وجدت يدي بحركة لا إرادية تهبط إلى جيبي وتخرج منه قطعة "شيكولاتة" كنت أحتفظ بها تحسبًا لغيبوبة سُكر محتملة قد تباغتني، ثمَّ مددت يدي بها فتناولها عرابي مني في شوق وقد انفرجت أساريره وعلت وجهه ابتسامة.

تجمّدت كمكعب من الثلج، ناظرًا إلى عرابي وهو يمشي مع السيدة بخطًى متمهلة كالسلحفاة حتى غابا عن امتداد بصري داخل مبنى الدار، لم يمضِ كثير من الوقت حتى غادرتُ المبنى وقد تقهقرت عزيمتي وقوتي، أحاول جاهدًا استيعاب ما حدث، شخص بصري إلى السَّماء للحظات في وجوم، وبخطوات متثاقلة مشيت لا ألوي على شيء.

النذير

كما اختفى الأعور عن حارته فجأة قبل أعوام، عاد فجأة وشد ما تغيّر حاله.

"سبحان العاطي من غير مناسبة!".

"كنا في جرة وخرجنا لبرة!".

هكذا تحدث أهل الحارة ممن يعرفون الأعور حق معرفة، بعدما ظهر لهم الرَّجل بمظاهر من الأبَّهة والفخامة والثراء الواضحة للعَين، فمن ارتدائه الخيش إلى الحرير، ومن انتعاله الصندل إلى الحذاء الإيطالي، ومن رائحته النتنة كمقلّب قمامة إلى رائحة عطرة ذكية، ومن العربة "الكارو" إلى سيارة فارهة دخلت الحارة الضيقة المتعرجة بشق الأنفس وبفضل مهارة سائقها الخصوصي.

وفي هذا المساء دخل الأعور مقهى "العهد الجديد" الواقع على قمة الحارة وسط هالة من الأتباع والأنصار، وبعد أن ألقى السّلام على رواد المقهى وجلس على أحد المقاعد وجاءه فنجان القهوة والنَّارجيلة تجمّع حوله الأهل والأحباب يتفحصونه في غرابة بعدما انقلب حاله كتفحص أحدهم لكائن الأميبا تحت عدسة المجهر أوَّل مرَّة!

وبعد دقائق من التحيّات والسّلامات والسؤال عن الصحة والاختفاء الغريب عن الحارة ألقى الأعور بقُنبلة في المقهى عندما وعدهم بالمال والذهب!

وانفجرت قنبلته في وجوه مستمعيه، لتصيبهم الدهشة، مقلصة وجوههم من التعجب! وانفجرت الأسئلة والاستنكارات كذلك لوعد الأعور العجيب والمباغت من عينة: كيف؟ وما الطريقة؟ هل حديثك جد أم مجرد هذر؟ هل أنت محشش يا كرم يا أعور؟! لكن الأعور لاذ بالصمت ثوانيَ. حاسرًا العصابة السوداء تحت عينه اليمنى المفقودة إثر مشاجرة دامية قبل سنوات، وأخذ يهرش جفنه بسبابته وسط نظرات الترقب والدهشة في أعين الجميع، حتى إن المقهى نفسه قد خيّم عليه الصمت إلا من صوت قرقرة نارجيلة الأعور، وكأنَّه –أي المقهى- ينتظر ما سيقوله الأعور هو الآخر الَّذي طالبهم بالحفرِ أسفل سافلة بيوتهم للتنقيب عن آثار ترقد في باطن الأرض! ووعدهم ببيع تلك الآثار بُعيد استخراجها مقابل إعطائهم المال والذهب.

ووزع الأعور عليهم الآلاف من الجنيهات، كانت موضوعة في بقجة، في هيئة رزم ماليَّة لم ترَ الحارة الفقيرة المطحونة مثلها إلا في الأفلام، كدفعة تحت الحساب وكذا لشراء المعدات اللازمة لعملية الحفر.

وبدأت عمليات التنقيب بُعيد توزيع رزم النقود التي زاغت أبصار أهل الحارة أمامها، وبدا النَّاس كالمجانين أوكأنَّهم أصيبوا بالسعار، أهل

الحارة كلهم يحفرون قعور بيوتهم مدفوعين بالمال والذهب كما وعدهم الأعور، وكانت عمليات التنقيب لا تتوقّف طوال اليوم إلا بضع ساعات من أجل الطعام والراحة، لكن رغم كل هذا الجهد ورغم توالي الأيّام لم يظهر لهم أيّ شيء كبارقة أمل في وجود الكنوز الموعودة، كانت معاول حفرهم ترتطم بخيبة الأمل في كل مرَّة، لكنَّهم مع هذا واصلوا الحفر أملًا في ظهور أيّ شيء يبل ريقهم.

وفي فجر أحد الأيَّام وبينما كان الأهالي يواصلون عمليات الحفر اليوميَّة حدث أن انهارت بيوتهم فجأة ودون سابق إنذار وفي توقيت واحد، فابتلعت الأعماق السحيقة الناتجة عن عمليات الحفر المكثف بيوت الحارة المشؤومة بمن فيها.

وانفجرت المنطقة رعبًا وعمت الفوضى وساد الهرج والمرج وعلا الصراخ والعويل ولم تفلح جهود الأهالي أو حتى رجال الدفاع المدني في إنقاذ أيّ شخص ممن ابتلعتهم الأعماق السحيقة وكان من الطبيعي أن ينفجر الغضب في وجه الأعور صاحب الفكرة فسأل واحدٌ من الأهالي وكانوا يشكلون حلقة نقاشية وهم يرمقون الأعماق التي ابتلعت ذويهم:

- أين الأعور؟ أين أُس البلاء؟

وهتف آخر:

- عمل عملته وهرب المجرم ابن نسل الشياطين!

وقال قائل:

- الواطي ابن الواطي!

وهتف أحدهم في حدة:

- الويل له!

وقال شيخ معمّم في ازدراء:

- لولا طمعكم واتباعكم إيّاه لما وقع ما وقع!

زمجر أحد الواقفين الَّذي لم يعجبه هذا الرأي فصاح غاضبًا:

- نقطنا بسكاتك وحياة أمك!

لكن المعمّم تجاهل إساءته وصاح متماديًا في جرأته:

- إنَّها الحقيقة ولشد ما تؤلمكم الحقيقة!

ولم ينجُ أحدٌ ممن ابتلعتهم الأعماق ولم يُعثر على الأعور أبدًا رغم عمليات البحث المكثف عنه وتعقب أثره، اختفى الرَّجل وكأنَّهُ قد تبخر أو فُقد في عملية الابتلاع المخيفة، وقد شاعت أخبار بين الأهالي مُفادها أنَّ الأعور الذي أتى فجأة ليقلب الحارة المشؤومة رأسًا على عقب، لم يكن الأعور، وإنما هو شبيه له، أمَّا الأعور الحقيقي فقد لقي مصرعه في أحداث الثورة قبل سنوات!

وكثرت وتشعبت التفسيرات والتأويلات بلا دليل يريح النفوس المضطربة لما وقع للحارة المنكوبة ولاختفاء الأعور العجيب فازدادت الأجواء ضبابيَّة وقتامة، وبات ما وقع من فداحته وهوله وغرابته وعدم

وجود تفسير منطقي له، بات كأسطورة أو رواية خيالية تتناقلها الألسُن البسيطة بقلوب وجلة، إلى الدرجة الَّتي جعلت الشيخ المنشاوي وهو قارئ ضرير له مكانة روحانيَّة رفيعة في قلوب النَّاس هنالك، يؤكد أنَّ الأعور مات حقًّا، وأنَّ من أتى إلى الحارة هو عفريته، وقد جاء ليعبث بالحارة ويعاقبها لعصيانها ولذنوبها ولنسيانهم الله واتباع الشيطان! ثمَّ طالب النَّاس بالدعاء بالرحمة لموتى الحادثة والاستغفار، حتى يزيح الله الغمة ويكشف المستور عن هذا الَّذي جاء بلا موعد وبلا نذير.

غائمٌ كُليًا
"مُستوحاة مِن أحداثٍ حقيقية"

يوم كغيره من أيَّام أغسطُس الحار.

كنت أقف منصهرًا من شدة الحرارة والرطوبة الخانقة على رصيف "المترو" المكتظ بالرُّكاب منتظرًا قدومه، أنفاس النَّاس وعرقهم يجثمان على صدري، بعض من غبار رياح الخماسين يتسلل في خفة إلى داخل المحطة ليتسلل بدوره إلى شعبي الهوائيَّة ليزوم صدري كمحرك سيارة قديم يأبى أن يدور، وكأنَّ كل شيء يسير وفقًا لمخطط مرسوم بعناية ليناصبني العداء. وفي تلك الأثناء بوغت به يقف بجواري حتى تلامس منكبانا، رمقته غاضبًا محتدًّا مستنكرًا تلاصقه بي على هذا النحو الوقح وكأننا عاشقان أو كأنَّني عمود إنارة! ثمَّ تفحَّصته في عناية من رأسه حتى أخمص قدميه. رجلٌ في الأربعين أو نحو ذلك فارع الطول، حلو الملامح، حليق الوجه، شعره ناعم لامع ممّشط إلى الخلف بعناية فائقة ولولا بدلته المرتوقة في أكثر من موضع وحذاؤه الأجرب لظننت أنَّه موظف حكومي مرموق أو رجلٌ ينحدر من أصل كريم.

ثمَّ وجدته فجأة ودون مناسبة يتحدث معي في غضب وبصوت عالٍ عن الانتخابات الهزلية بالبلاد فوصفها بالمسرحية المكررة المملة الغبية منذ عقود، ووصف أبطالها بالوقحين ومشاهديها بالأغبياء البائسين.

اندهشت من حديثه وجرأته، وأنا من كنت أتوقع أن يقصدني في جنيه أو جنيهين، حتى إنّني لويت بوزي استهانة! لم أجبه واكتفيت بإيماءة من رأسي وكأنّني أوافقه على كلامه، الحقيقة أنّني كنت قد قطعت عهدًا بيني وبين نفسي بعدم الخوض في غمار أيّ مناقشة أو جدل سياسي حتى لا أدخل في مشادات أو مهاترات لا طائل منها ولا جدوى من ورائها إلا حرق الأعصاب والضغط وقلة القيمة من طرف جاهل أو غبي متحيز.

وانطلق الرَّجل بعد ذلك في حديث أشبه بالعويل واللطم كالشيعة! طفق يحدثني عن غلاء المعيشة وارتفاع أسعار الطعام والمواصلات والخدمات وكذا ضيق الرزق والتموين الَّذي لا يكفي بطون أسرته، قال لي أيضًا إنَّه اضطر تحت وطأة الفقر والغلاء إلى شراء هياكل الدّجاج، أمَّا اللحم فيأكله كل حين ومين! كان الرّجل يحدثني في حدة وغضب شديدين حتى نفرت عروق رقبته وتناثر عليَّ زخَّات من لعابه كالأمطار!

كان الرّجل الغاضب المحتدّ يختم كل جملة في حديثه بسؤالين "أوَليست مهزلة؟ أوَليس هذا هو الجحيم يا سيدي الفاضل؟" لم أعطه إجابة قط، وإنما كنت أمصمص شفتيَّ في أسف وكأنّني أشاطره غضبه وأحزانه.

انتزعني من ثرثرته ارتفاع صوت الصافرة المُتقطع إيذانًا بقدوم "المترو"، تركته دون وداع أو سلام وكأنَّ الصافرة انطلقت في سرعة لانتشالي من معاناتي معه، تأهبت للركوب ولم تمضِ ثوانٍ حتى جاء "المترو" فاندفعت مع المندفعين نحوه لأحشر نفسي فيه، لم أكد أفعل حتى وجدت يدًا ثقيلة كمطرقة تهوي على قفايَ! ندت مني آهة والتفتُّ ورائي في حدة لأجد ضابط أمن يمسك ذراعي في قسوة ولمحت آخر يمسك ذراع من كان يحدثني منذ ثوانٍ! اضطربت وتبلبل ذهني وتشوش وانحبست الكلمات في حلقي عندما وجدت الضابط يقول لي في غلظة "شششش ولا كلمة!"، وبُعيد التشريفة في الحجز بقسم الشرطة الَّذي خرجت منه بوجه متورم كملاكم خرج من نزال عنيف بالحلبة، وأمام النيابة كانت التهمة الموجهة إلى كل منا: تكدير السلم والأمن العام وإطلاق الشائعات!

الفهرس

دخول مفاجئ	٩
شقة بالطابق التاسع والعشرين	١٥
إشارة إلهية	١٩
مقهى الأزهار	٢٧
عشماوي وأُنثاه	٣٣
المهزوز	٣٩
مائِدة من السماء	٤٥
شيء منها	٥٣
لُعبة "الست"	٥٩
ملامح سهير علوان	٧١
يَومٌ آخرُ لِلرَّجل الطَّيِّب	٧٧
إنَّهم يأكلون الكباب	٨٧
أحد فرساتشي	٩٣
انتقام ولكن..	٩٧
النذير	١٠٥
غائم كليًّا	١١١

رسالتنا :

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017